أثر تطوّر العلم من الحتميّة إلى اللاحتميّة في الفكر الإسلامي الحديث: كرامات الأولياء عند محمد رشيد رضا أنموذجاً

إعداد

د/ حسن أحمد محمد عبد اللطيف

مدرس بقسم الفلسفة الإسلامية، كلية دار العلوم، جامعة المنيا

المستخلص

يسعى هذا البحث للكشف عن أثر تحوّل العلم الحديث من الحتميّة إلى اللاحتميّة في تغيير بعض التصورات الفكرية لدى بعض المفكرين المسلمين، حيث يظهر مدى الأثر الواضح لهذا التحوّل في النظريات العلميّة، وخاصة تطوّر الفيزياء الكلاسيكية إلى الفيزياء المعاصرة، ويحاول هذا البحث توضيح مفهوم الحتميّة، وكيف أنها امتداد لمقولات فلسفية قديمة مثل العليّة وغيرها؛ والتي ظهرت عند فلاسفة اليونان، ثم امتدت إلى الفلسفة الإسلامية، ثم ظهرت الحتمية كمسلّمة أساسيّة للعلم الحديث، وانتقلت إلى الفكر الإسلامي الحديث، وتمسك بها الكثيرون مثل محمد رشيد رضا، حيث استخرج معناها من القرآن الكريم، واستخدم الحتميّة العلميّة في رفضه أن تخرق كراماتُ الأولياء القوانين الطبيعيّة، ولكن بعد ظهور نظريات الكوانتم وغيرها تحوّلت العلوم إلى اعتناق اللاحتمية، فقد ظهر أن الحتمية لا تحكم عالم المايكروفيزياء؛ ونتيجة لذلك أصبحت مقولة الحتمية مقولة غير علمية إلى حد بعيد، وقد اتّضح انتقال هذا التطوّر إلى الفكر الإسلامي وتأثّر به محمد رشيد رضا وغيّر تصوّره تجاه كرامات الأولياء، ولم يَعُد يرفض أن تخرق الكرامةُ القوانين الطبيعيّة؛ بعد أن أصبحت القوانين العلميّة غير حتميّة، وتراجع عن قوله بأن القرآن الكريم يقول بحتميّة القوانين العلميّة.

الكلمات المفتاحية: الحتميّة، اللاحتميّة، الفيزياء الكلاسيكيّة، المايكروفيزياء، الكوانتم، كرامات الأولياء، محمد رشيد رضا.

Abstract

This research seeks to reveal the impact of the transformation of modern science from determinism to indeterminism in changing some intellectual perceptions among some Muslim thinkers, as it shows the extent of the clear impact of this transformation on scientific theories, especially the development of classical physics into contemporary physics. This research attempts to clarify the concept of determinism, and how it is an extension of ancient philosophical propositions such as causality and others; which appeared among Greek philosophers, then extended to Islamic philosophy, then determinism appeared as a basic axiom of modern science, and moved to modern Islamic thought, and many adhered to it, such as Muhammad Rashid Rida, who extracted its meaning from the Holy Quran, and used scientific determinism in his rejection of the miracles of saints violating natural laws, but after the emergence of quantum theories and others, sciences turned to embracing indeterminism, as it appeared that as a result, the .determinism does not govern the world of microphysics concept of determinism became a largely unscientific concept. It became clear that this development had been transferred to Islamic thought and influenced Muhammad Rashid Rida, who changed his perception of the miracles of saints and no longer rejected the idea that a miracle violated scientific laws, after scientific laws became non-deterministic. He retracted his statement that the Holy Qur'an speaks of the inevitability of scientific laws.

Keywords: determinism, indeterminism, classical physics, microphysics, quantum, miracles of saints, Muhammad Rashid Rida.

مقدمة

كان ولا يزال للعلم الغربي آثاره التي تمتد داخل الفكر الإسلاميّ الحديث والمعاصر، وربما يجوز لنا أن نقول إن الفكر الإسلاميّ الحديث في كثير من نواحيه كان محاولة للمزاوجة أو المقاربة بين العلم الغربيّ والإسلام، وهذه المحاولة تتشابه إلى حد بعيد مع تلك المحاولة القديمة التي حاول فيها فلاسفة الإسلام التوفيق بين الفلسفة اليونانيّة والإسلام، وكما كانت الفلسفة اليونانيّة تمثل العقلانيّة في تلك العصور القديمة؛ كذلك أصبح العلم الغربيّ الحديث ممثلًا للعقلانية ولكن بصورة أكثر إقناعًا وإبهارًا، ومن ثم راح المفكرون المسلمون يعملون على تقديم نسخة للإسلام تتوافق مع مقررات ومبادئ العلوم الغربيّة.

ولكن ما ظهر فيما بعد أن العلم الغربيّ دخل في طور جديد بنهاية القرن التاسع عشر، وتغيرت كثير من مفاهيمه، وكانت الحتميّة هي إحدى تلك المقولات المؤسسة للعلم الغربي في مرحلة الحداثة، ولكن في الطور الجديد للعلم في المرحلة المعاصرة تراجع تمسك العلماء بمقولة الحتمية.

تأتي هذه الدراسة للكشف عن تأثير تطور العلم الحديث من الحتمية إلى اللاحتمية على الفكر الإسلامي وكيف غيّر المفكرون المسلمون من أفكارهم وقناعاتهم تبعًا لهذا التغيّر في التصورات العلمية، وقد ركزت هذه الدراسة على أحد مفكرينا وهو **محمد رشيد رضا** (1865م _1935م) وخاصة في موقفه من مسألة كرامات الأولياء، ولذلك جاء هذا البحث تحت عنوان" أثر تطور العلم من الحتمية إلى اللاحتمية في الفكر الإسلاميّ الحديث، كرامات الأولياء عند محمد رشيد رضا أنموذجًا".

أهمية موضوع الدراسة

تتضح أهمية هذه الدراسة من كونها تحاول الكشف عن مدى تأثُّر الفكر الإسلاميّ الحديث بالعلم الغربي مما يساعدنا على فهم الصورة الحقيقية للتفكير الإسلامي الحديث ومصادره الخارجية.

أسباب اختيار الموضوع

من أسباب اختياري لهذا الموضوع:

1 _ أن الدراسات التي تكشف لنا أثر العلم الغربي في الفكر الإسلامي الحديث دراسات قليلة.

2 _ ما زال يثير موضوع كرامات الأولياء وفي أيامنا هذه جدلًا مستمرًا لا ينتهي ويستند الكثيرون من الرافضين له إلى مقررات العلوم برغم ما حدث فيها من تطور كبير.

3_ يعدّ محمد رشيد رضا من أهم مفكرينا في العصر الحديث والذي عاصر التحول العلمي الكبير من مرحلة الحداثة حيث الفيزياء الكلاسيكية إلى المعاصرة حيث النسبية وفيزياء الكم.

أهداف الدراسة

تهدف هذه الدراسة إلى:

1 _ الكشف عن حقيقة مفهوم الحتمية وروابطه الفلسفية ومدى علاقته بالمنهج العلمي، ثم توضيح مفهوم اللاحتمية وما ساهم في إيجاده من كشوفات ونظريّات.

2 _ بيان إلى أي مدى أثرّت مقولة الحتمية على الفكر الإسلامي الحديث وكيف أنها كانت الداعم لموقف محمد رشيد رضا في رفضه خرق الكرامات للقوانين الطبيعية.

3 – ثمّ يسعى البحث لتوضيح كيف أثرّ التطور العلمي الذي أدى لتراجع الحتميّة أمام اللاحتمية إلى تغيير نظرة محمد رشيد رضا إلى الكرامات بحيث ظهر إمكان خرق القوانين الطبيعيّة.

4 _ يحاول هذا البحث تقييم الفكر الإسلامي الحديث في ارتباطه بالوافد الغربي وتبنيه الأفكار الحداثية.

أسئلة الدراسة

تحاول هذه الدراسة الإجابة على الأسئلة الآتية:

1 _ ما المقصود بالحتمية؟

2 _ هل للحتمية صدًى في التراث الفلسفي القديم؟

3 – ما هي الأسباب التي ساعدت في ظهور الحتمية في العصر الحديث؟

4 – ما علاقة الحتمية بالعلم؟

5 _ إلى أي مدى تأثر الفكر الإسلامي الحديث بالحتمية، ولماذا؟

6 _ كيف اعتمد محمد رشيد رضا على مقولة الحتمية في موقفه من كرامات الأولياء؟

7 _ ما حقيقة مفهوم اللاحتمية وما هي تلك النظريات التي ساهمت في ظهوره؟

8 _ كيف تأثر محمد رشيد رضا باللاحتمية في تطور نظرته حول كرامات الأولياء؟

منهج الدراسة

تعتمد هذه الدراسة على المنهج التحليلي، حيث يقوم الباحث بتحليل مقولات محمد رشيد رضا لبيان حقيقتها ومصادرها وما ترمي إليه، كذلك أيضًا تحليل المصطلحات العلمية لبيان المقصود منها، وتعتمد الدراسة كذلك المنهج النقدي؛ حيث تعرض لمقولات رشيد رضا وغيره بالنقد عندما يلزم ذلك، كذلك اعتمدت الدراسة على المنهج التاريخي وذلك في استرداد الأفكار القديمة التي كانت سلفًا للحتمية الحديثة.

خطة البحث:

المبحث الأول: الحتمية وأثرها في الفكر الإسلامي الحديث، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الحتمية مفهوم، وتاريخ، وعلاقة بالعلم.

المطلب الثاني: أثر الحتمية في توجيه الفكر الإسلامي الحديث

المبحث الثاني: اللاحتمية وأثرها في الفكر الإسلامي الحديث، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: اللاحتمية مفهوم، وتاريخ، وعلاقة بالعلم.

المطلب الثاني: أثر اللاحتمية في التوجيه الجديد للفكر الإسلامي الحديث

المبحث الأول:

الحتمية وأثرها في الفكر الإسلامي الحديث

في هذا المبحث نلقي الضوء على مفهوم الحتميّة وكيف أنها تترابط مع مفاهيم فلسفية قديمة مثل السببيّة والعليّة والضرورة والطبائع، وكيف ظهرت الحتمية حديثًا، ويحاول البحث أن يكشف تلك العلاقة الوثيقة بين العلم الحديث والحتمية، ثم يتتبّع مدى تأثير مقولة الحتمية في الفكر الإسلامي الحديث، وخاصة أثرها في توجيه موقف رشيد رضا من كرامات الأولياء.

المطلب الأول: الحتمية مفهوم، تاريخ، وعلاقة بالعلم.

الحتميّة Determinism مذهب فلسفي يؤكد بأن الضرورة تسود العالم، وفي الأبستمولوجيا تتمثل الحتمية في مجموع تلك الشروط الضرورية لكي تتحقق ظاهرة ما[1].

ومن الذين يتعصبون للحتمية **محمد باقر الصدر** (ت1980م) وهو يرى أن قانون الحتميّة هو القائل إن كل سبب يولّد النتيجة الطبيعيّة له بصورة ضروريّة ولا يمكن للنتائج أن تنفصل عن أسبابها[2].

بينما يذكر الدكتور **جميل صليبا** (ت1976م) أن للحتمية ثلاثة معانٍ[3]:

(1) د/ رابح عيسو: بحث بعنوان(الحتمية بين الفيزياء النيوتونية والفيزياء الكوانتية) مجلة دراسات إنسانية واجتماعية، جامعة وهران، المجلد 9، العدد الثالث، 2020/6/16 ، ص 278

(2) محمد باقر الصدر: فلسفتنا، دار التعارف، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية عشر، 1402هـ 1982م، ص 305

(3) جميل صليبا: المعجم الفلسفي، الجزء الأول، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982م ص 443 -444

المعنى الأول: هو المعنى المشخّص؛ وهو قول إن كل ظاهرة من ظواهر الطبيعة مقيّدة بشروط توجب حدوثها اضطرارًا، أو بمعنى آخر هي: مجموع تلك الشروط الضرورية لحدوث إحدى الظواهر.

المعنى الثاني: هو الحتمية بالمعنى المجرّد؛ وهنا تعني أن يكون للحوادث نظام معقول تترتب فيه العناصر على صورة يكون كل منها متعلقًا بغيره، حتى إذا عُرف ارتباط كل عنصر بغيره من العناصر أمكن التنبؤ به أو إحداثه أو رفعه.

المعنى الثالث: هو الحتمية بالمعنى الفلسفي، فهو مذهب يرى أن جميع حوادث العالم، وبخاصة أمثال الإنسان مرتبطة بعضها بعض ارتباطًا محكمًا، فإذا كانت الأشياء على حالة ما في لحظة معينة من الزمان لم يكن لها في اللحظات السابقة أو اللاحقة إلا حالة واحدة تلائم حالتها في تلك اللحظة المعينة، والطبيعة بذلك ليس فيها ابتداء مطلق ولا علة أولى، ولا طفرة ولا معجزة[1].

وهذا المعنى الثالث يوضح أن من معاني الحتميّة أنها ترفض فاعلية الإله من حيث خلق العالم بدايةً، وتنفي فاعليته وتدخله فيه من خلال المعجزة ومن باب أولى الكرامة.

وتذكر د/ **يمنى طريف الخولي** (مواليد1955م) في كتابها (فلسفة العلم من الحتمية إلى اللاحتمية) أن الحتمية العلمية مبدأ يفيد عمومية القوانين الطبيعية وثبوتها واطّرادها، فلا تخلّف ولا مصادفة، إذ يعني هذا المبدأ أن نظام الكون ثابت، شامل، ومضطّرد، كل ظواهره مقيدة بشروط تلزم حدوثها اضطرارًا، أي خاضعة لقانون محدد، وهذا ما يجعله كونًا منتظمًا، فليس في الطبيعة جواز ولا إمكان، ولا طفرة ولا معجزة، بل كل ما فيها ضروريّ[2]، فالحتمية العلمية تعني القابلية للتنبؤ، والعلية، واضطراد

(1) المرجع نفسه ص 443 -444

(2) يمنى طريف الخولي: فلسفة العلم من الحتمية إلى اللاحتمية، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2001، ص 56

الطبيعة، والعمومية المطلقة للقوانين والضرورة واليقين لتلك القوانين واتسامها بالسمة الرياضية، وأنها منزهة عن أي احتمال وتعني أيضًا تصوّر الكون كآلة ميكانيكية ضخمة[1] ولابد أن نعرف أن الحتمية العلمية وقبل كل شيء هي الحتمية الفيزيائية[2].

وحسب هذا المفهوم الواضح للحتمية لا يمكن الحديث عن إمكانية خرق هذه القوانين الصلبة للطبيعة، فإن إدراج القانون تحت مبدأ الحتمية يعني أنه غير قابل للخرق[3] وبالتالي فإنه لا يمكن التحدّث عن كرامات خارقة لهذه القوانين المتماسكة بشدة، وكل الدعاوى بأنّ الأولياء لهم كرامات خارقة للطبيعة مجرد كلام عارٍ من الصحة.

ويُرجِع البعض الحتمية إلى فكرة السببيّة والعلّية ومذهب الطبائع[4]؛ والسببية تعني أن كلّ شيء له سبب، وأنه لا شيء في العالم يجري بلا سبب، ولا يمكن لشيء ما أن يوجد أو يتوقف عن الوجود بلا سبب[5]، وقد كانت السببية متقاربة ومتشابكة مع العلّيّة وإن فرّق البعض بينهما فقالوا السببية تعني أن السبب ما يحدث عنده الشيء لا به، بينما العلّة ما يحصل به الشيء، كذلك فإن المعلول ما ينشأ عن العلّة بلا واسطة أو شرط، على حين أن السبب يفضي إلى الشيء بواسطة

(1) المرجع نفسه ص 93

(2) المرجع نفسه ص 182

(3) المرجع نفسه ص 55

(4) يمنى طريف الخولي: الطبيعيات في علم الكلام، من الماضي إلى المستقبل، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1995م ص 90، محمد باقر الصدر، فلسفتنا، مرجع سابق، ص 306

(5) السيد نفادي: السببية في العلم وعلاقة المبدأ السببي بالمنطق الشرطي، دار التنوير للطابعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2006م، ص 26

أو بوسائط، ولذلك يتراخى الحكم عنه حتى توجد الشرائط، أما العلّة فلا يتراخى الحكم عنها إذ لا شرط لها، وهذا يعني أنّ السبب أعمّ من العلّة لأن كلّ علّة سبب[1].

إذن يمكن أن نقول إن الحتمية لها جذور ممتدة في أعماق التفكير الفلسفي القديم، وكما تذكر د/ **يمنى طريف الخولي** فإن الحتمية مثل سائر المقولات في الفلسفة موجودة بصورة أو بأخرى منذ أولى مراحل التفكير الفلسفي[2]. وعلى الرغم من أن بعض الفلاسفة اليونانيين قالوا بحتمية شاملة غير أننا لا نعلم مدى اتفاق نظرتهم إلى الحتمية السببية مع النظرة الحديثة، حيث إنه لم يترك واحد منهم صيغة واضحة تحدد ما يعنيه بالحتمية[3]، وتزعم د/ يمنى الخولي أن فلسفة **ديمقريطس** (ت370 ق م) الذرية ليست إلا تطبيقًا كاملًا لمبدأ الحتمية العلية، فالذرات لا تهتز إلا بفعل تصادم مع ذرات أخرى[4].

ومن المعروف أن فكرة السببيّة والعلّيّة انتقلت إلى البيئة الثقافيّة الإسلاميّة تأثّرًا بفلسفة **أرسطو** (ت322ق م)، وتمسّك بها الفلاسفة المسلمون وخاصة شارحه الأكبر ابن رشد (ت595هـ) الذي اتّسمت عنده السببية بنوع من الضرورة[5]، ولكن الأشاعرة رفضوا السببيّة والعليّة الأرسطّية وفسروا السببيّة والعليّة بمجرد الاقتران بين الحوادث[6]، وربما كان الأدّق أن نقول إن النقد الأشعري وخاصة عند **أبي حامد الغزالي**(ت505هـ) قد تركّز على الحتميّة السببيّة وليست السببيّة بشكل عام، حيث رأى

(1) المرجع نفسه ص 30وما بعدها

(2) يمنى طريف الخولي: فلسفة العلم من الحتمية إلى اللاحتمية، مرجع سابق، ص 49

(3) المرجع نفسه هامش ص 32

(4) يمنى طريف الخولي: فلسفة العلم من الحتمية إلى اللاحتمية، مرجع سابق، ص 107

(5) بلال البازي: مفهوما السببية والحتمية بين ابن رشد واسبينوزا، مجلة تبين للدراسات الفكرية والثقافية،2020، مجلد8، عدد32، ص 46

(6) السيد نفادي: السببية في العلم ..، مرجع سابق ص 33

أن الروابط بين الأحداث والأشياء ليست ضرورية[1]، وتذكر الدكتورة يمنى طريف الخولي أن ابن رشد كان من أصحاب الطبائع حيث أقر بفعل الطبع والطبيعة في استقلال عن الله وقد شنّ هجومًا ضاريًا على الأشاعرة والغزالي لرفضهم العلية والطبائع والضرورة[2]، بينما امتدحت الدكتورة يمنى المعتزلة كونهم تمسّكوا بالحتمية والعلّية[3]، ولكن المتكلمين عمومًا قد اعتمدوا نظرية الجوهر الفرد وأن الله يخلق الأعراض ويجددها في كل وقت وبذلك صار الوجود منفصلًا ومتغيرًا بعد أن نفوا بقاء العرض زمانين وعندما يتدخل الله بهذا الشكل المباشر فهوا يحقق اتصال العالم واستمراره؛ ونتيجة لذلك فإن المتكلمين _حسب زعم الدكتورة يمنى_ ضحّوا بالطبيعة لإفساح المجال للمعجزات والكرامات[4]، ومن ثمّ دعت الدكتورة يمنى الخولي إلى القطيعة المعرفية للطبيعيات الكلاميّة التي ضحّت بالطبيعة واستغلتها للتوحيد[5].

وفي حين تحاملت الدكتورة يمنى الخولي على التراث الكلامي باعتباره المسؤول عن تراجع العلم عند المسلمين فإننا نجد الدكتور **فؤاد زكريا** (ت2010م) لا يقول بقولها هذا ولا يتهم المتكلمين هذا الاتهام، فقد رأى أن السعي إلى المعرفة المنظمة، كان يفترض أن للطبيعة قوانين ثابتة، وأن الحتمية تسود مجرى الأحداث، وقد بدا ذلك عند البعض حدًّا من القدرة الإلهية، ومن ثمّ قدم المعتزلة حلًا حيث ميّزوا بين العلل الأولى والعلل الثانية، فالله سبحانه هو العلّة الأولى لكل شيء، بينما الظواهر الطبيعية هي علل ثانية، ولها قوانينها التي لا تتبدل، والله في النهاية هو

(1) أبو يعرب المرزوقي: مفهوم السببية عند الغزالي، دار بو سلامة للطباعة والنشر، تونس، الطبعة الأولى، د ت، ص27، 37، وانظر د/ محمد باسل الطائي: دقيق الكلام الرؤية الإسلامية لفلسفة الطبيعة ، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن،2010 ، ص 192

(2) يمنى طريف: الطبيعيات في علم الكلام، مرجع سابق ص 127

(3) المرجع نفسه ص 91

(4) المرجع نفسه ص 81-83

(5) المرجع نفسه ص 93

خالق كل شيء، كما أن الفاعلية الإلهية تُمارس من خلال الطبائع الثابتة للأشياء بينما رفض الأشاعرة وجود طبائع ثابتة للأشياء ليؤكدوا تدخل القدرة الإلهية في كل تفاصيل الأحداث، وقد أوضح الدكتور فؤاد زكريا أن وجهة نظر الأشاعرة لم تؤثر في موقف العلماء الباحثين في الطبيعة من المسلمين ولم يكن النقاش النظري عقبة في مسيرتهم الظافرة(1).

وحديثًا؛ ربما بدأت فكرة الحتمية منذ جاليليو جاليلي (ت1642م) حيث رأى أن الكون مكتوب بلغة رياضية؛ أي مخلوق ومتكوّن وفق قوانين رياضية وبدونها لا يمكن فهمه، وعلى ذلك دعا إلى تحويل الواقع المحسوس إلى موضوع تجريدي، حيث العالم قائم على نظام خالد أو هو آلة عظمى منتظمة بإحكام حسب قوانين ثابتة وإن التفسير العلمي الوحيد هو التفسير بالأسباب والنتائج(2).

وقد أيد **ديكارت** (ت1650م) التصور الميكانيكي للسببية كما نادى به جاليليو، وعدّه ديكارت الطريق المثلى لبلوغ الحقيقة ورأى أن العالم المادي يخضع للحتمية(3)، وكان **سبينوزا** (ت1677م) من أشهر دعاة الحتمية؛ فالعالم عنده محتم عليه أن يسير كما يسير وليس له غرض أو مقصود محدد سلفًا، فكل شيء يحدث وفقًا لقوانين الطبيعة وضرورتها، بل إن الإله والعقل مع كل الموجودات يخضعان للحتمية(4).

والحقيقة فإنه منذ أن اكتشف **إسحاق نيوتن** (ت 1727م) الجاذبية وصاغ قوانين الحركة، تمكن العلماء من صياغة قوانين تحكم العالم وبصيغ رياضية دقيقة وكان هذا ميلادًا للعلم الحديث، وقد أدى ذلك إلى وجود قناعات لدى البعض أن

(1) فؤاد زكريا: خطاب إلى العقل العربي، مؤسسة هنداوي، 2018م ص 56
(2) د/ رابح عيسو: مرجع سابق ، ص 281
(3) بلال البازي: مفهوما السببية والحتمية، مرجع سابق ، ص 49
(4) نفسه، ص 47وما بعدها

العالم محكوم بقوانينه ولا تدخل فيه لأي قوى غيبيّة[1]، وكما تذكر د/ يمنى الخولي أن الحتمية العلمية قد تسلّمت مقاليد السلطة المطلقة عام 1687م عندما نشر نيوتن كتابه **(الأسس الرياضية للفلسفة الطبيعية)** الذي يحتوي الهيكل العام للفيزياء الكلاسيكية أو للعلم الحتميّ[2]، ومن ثم شاعت فيزياء نيوتن وأثرت على فلاسفة أوربا مثل كانط (ت1804م) وغيره[3].

ومنذ ذلك الحين صار مبدأ الحتمية هو مبدأ العلم المطلق الذي سيطر عليه، وإليه يُرجع الكثيرون الفضل في تقدّم العلم، وبالتالي كان يمكن تعريف العالِم بأنه المؤمن بالحتمية الكونية الشاملة[4]، ويُعدّ القرن التاسع عشر هو قرن الحتمية العلمية حيث سيطرت فيه الحتمية على كل العلوم حتى شملت علم الاجتماع وعلم النفس وعلم التاريخ[5].

وترى د/ يمنى الخولي أن العلم احتاج في مرحلته الحديثة إلى فرضية الحتمية، وملازماتها _(الموضوعية، اليقين، الضرورة، الثوابت المطلقة)_ لكي يتمكن من خوض الصراع مع السلطة المعرفية للفكر الديني بكل ثوابتها ومطلقاتها[6]،

وفي رأي الباحث أن هذا التوجيه للعلم الحديث المعادي للدين ظهر بشكل أكبر في فرنسا وخاصة عند فلاسفة التنوير الذين عانوا أكثر من غيرهم من جمود رجال الدين الكاثوليك، وكان **فولتير** (ت1778م) من أشهر من اعتنق فيزياء نيوتن

(1) د/ محمد باسل الطائي: دقيق الكلام، مرجع سابق ص 152

(2) يمنى طريف الخولي: فلسفة العلم من الحتمية إلى اللاحتمية، مرجع سابق، ص 196

(3) رابح رزيق: أزمة الفيزياء المعاصرة، من النظام إلى الفوضى، مجلة آفاق علمية جامعة وهران2، الجزائر، 2023، مجلد16، عدد1 ص 169وما بعدها

(4) يمنى طريف الخولي: فلسفة العلم من الحتمية إلى اللاحتمية، مرجع سابق، ص 107

(5) المرجع نفسه، ص 52

(6) المرجع نفسه، ص 399

ولكنه استغل هذه الفيزياء لتقوية مذهبه الربوبيّ وهذا ما لفت إليه الدكتور **سالم يفوت** (ت2013م) في كتابه (أبستمولوجيا العلم الحديث) فقد رأى أن فولتير جعل دور الخالق يقتصر على بثّ قوانين رياضيّة في الطبيعة وهي قوانين ضرورية وخالدة، وبذلك استغل فولتير وفلاسفة التنوير اسم (نيوتن) لدعم مقولتهم في الاعتقاد بإله فلسفي أو ربّ لا علاقة له بهذا العالم، وهذا ما دعمه **ديدرو** (ت1784م) الذي جعل الإله لا صلة له ولا دخل له بهذا العالم وليس للعالم حاجة إليه بعد أن حرّكه الحركة الأولى[1].

بذلك يظهر واضحًا أن العلم يتمّ احتواؤه من قبل الفلسفات المعاصرة له والتي تنظر فيه لا بنيّة الانفتاح عليه ولكن بدافع البحث فيه عمّا يدعم أطروحات جاهزة بنيّة تحويله إلى سند لهذه الأطروحات[2].

وفي نظر الباحث أن هذا التوجيه للعلم وهذه القراءة المقصودة لأغراض سياسية واجتماعية واقتصادية[3] ربما تؤثر على مسار العلم نفسه، فقد راح العالم الفرنسي **بيير لابلاس** (ت1827م) ومتأثرًا بهذه الموجه الربوبية في بلده فرنسا أقول راح يبحث ويعمل لتأكيد الحتمية الكونية التي بلورتها فلاسفة التنوير الفرنسيين، وربما يمكن القول بأن الحتمية تبدأ حقيقةً وفعلًا وبصورتها الفجّة من هذا العالم الفرنسي (لابلاس) ففي كتابه (a philosophical essay on probabilities) يؤكد أن كل الأحداث الطبيعية تتبع قوانين الطبيعة وهي نتيجة لهذه القوانين وبشكل حتمي، وأنه مع توسع العلم تتأكد هذه الحقيقة حيث إن كل الأحداث الحالية ترتبط بالأحداث السابقة بروابط مبنية على المبدأ الواضح بأن الشيء لا يمكن أن يحدث بدون سبب

(1) د/ سالم يفوت: إبستيمولوجيا العلم الحديث، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثانية،2008 ، ص 152

(2) المرجع نفسه ص 136

(3) رابح رزيق: أزمة الفيزياء المعاصرة، من النظام إلى الفوضى، مرجع سابق، ص 175وما بعدها

يؤدي إلى حدوثه[1]، وقد رفض لابلاس ومن منطلق علمي التدخلَّ الإلهي الذي افترضه (نيوتن) لتحتفظ الكواكب بمداراتها؛ حيث فسّر لابلاس بالميكانيكا وحدها كيف أن نظام الآلة السماوية يعيد إقامة ذاته من ذاته دون اللجوء إلى أي تدخّل إلهي[2]، وقد سميت حتمية لابلاس بالحتمية الكونية حين زعم أن كل ظواهر الطبيعة تخضع لمجموعة شروط حتمية تجعلها تسير حسب منطق رياضي حتمي لا يتغير نحو نتائج معينة وهذا يدل على أن عالم الطبيعة هو عالم مترابط بشكل حتمي؛ من خلال ظواهره الطبيعية التي تترابط مع بعضها بروابط حتمية مباشرة[3].

وكان الفرنسي **كلود برنار** (ت1878م) من الذين ساندوا فكرة الحتمية حيث أكد أن شروط كل ظاهرة محددة تحديدًا مطلقًا فإذا توفرت هذه الشروط حدثت الظاهرة دائمًا، فهذا العالم تحكمه قوانين ثابتة لا تتغيّر، وإن إنكار الحتمية في رأيه هو إنكار للعلم نفسه[4].

لقد رأى هؤلاء أنه لا بد لكل مفعول من وجود السبب المعروف، ولا بد لكل سبب من مفعولات يمكن معرفتها، وبذلك أصبح المستقبل نتيجة الماضي، ولا يمكن لأحد أن يغيّر في هذا العالم شيئًا، حتى إن الأفكار نفسها يجب أن تُفسّر بهذه الآلية نفسها، لقد أطلقتْ يدُ الله هذه الآلةَ الكبيرة منذ الأزل، ولا أحد يستطيع إيقافها، وقد عُرف هذا المذهب باسم الحتمية، وكان الخضوع لقوانين الفيزياء قدَر الكائنات كلها،

(1) **Pierre-Simon, Marquis de Laplace: a philosophical essay on probabilities, Translated from the sixth French edition by: Frederick Wilson Truscott, Ph.D. (Harv.), and others, John Wiley & Sons, London: Chapman & Hall, Limited. 1902, p 3,4**

(2) د/ رابح عيسو: مرجع سابق، ص 278

(3) إبراهيم زروق: إشكالية المعرفة بين الحتمية واللاحتمية، بيير لابلاس أنموذجًا، مجلة جامعة تشرين الآداب والعلوم الإنسانية، المجلد 45، العدد(1)، 2023م، ص 348

(4) المرجع نفسه، ص 281

فقد كان من المستحيل عصيان هذه القوانين، ولم يعد في هذه الدنيا مكانًا للإرادة الحرة أو الحب أو الكره[1].

ونتيجة لذلك أصبح هناك رباط وثيق بين العلم والحتمية، وخاصة أن مصطلح العلم Science كان قد وُضع أولًا من أجل العلوم الفيزيوكيمائية بمناهجها التجريبية الصارمة ولغتها الرياضيّة المحكمة[2]، وكما تقول د/ يمنى الخولي في كتابها (الطبيعيات في علم الكلام) فإن الحتمية صارت الأساس الإبستمولوجي والأنطولوجي للعلم الحديث، بل كانت الحتمية هي الأساس والعماد أو الإطار والهدف للعلم[3].

وكما يذكر أستاذ الفلسفة وعلم النفس بجامعة كاليفورنيا **هنترميد** (ت1961م) فإن الحتميّين يزعمون أن الكشف العلمي لا يكون ممكنًا إلا لأن في استطاعة العالم أن يفترض عالمًا منظمًا، عاقلًا يوجد فيه كل حادث بوصفه طرفًا في علاقة عليّة[4]، والعلية هنا بمعنى الحتمية، وهذا ما أشار إليه **محمد باقر الصدر** (ت1982م) حين قال إن مبدأ العلية تتوقف عليه كل النظريات العلمية وكل القوانين المستندة على التجربة[5]، وفي الحقيقة فإن باقر الصدر من المدافعين عن الحتمية ومن الذين يربطون بينها وبين العلم برباط وثيق؛ حتى بعد أن رفض العلم الغربي المعاصر وجود الحتمية في عالم المايكروفيزياء _كما سنعرض لاحقًا_؛ حيث يزعم الصدر أن الحتمية حاكمة حتى في عالم الذرة والجسيمات الدقيقة ولكن العلماء لم يستطيعوا

(1) فريد آلان وولف، مع القفزة الكمومية، ترجمة أدهم السمان، دار طلاس دمشق، سوريا، 1994م، ص 44وما بعدها

(2) يمنى طريف الخولي: مرجع سابق ص 154

(3) المرجع نفسه، ص 90

(4) هنترميد: الفلسفة أنواعها ومشكلاتها، ترجمة فؤاد زكريا، مؤسسة هنداوي، 2022م ص 358

(5) محمد باقر الصدر: فلسفتنا، مرجع سابق، ص 303

الكشف عنها في المايكروفيزياء لضعف أدواتهم[1] ويتابعه في ذلك د/ مهدي كَلشني الذي يرى أن نفي مبدأ العليّة يستلزم نفي القوانين العلمية ونفي الاستدلال[2].

يمكن أن نجد هذه العلاقة القوية بيت العلم والحتمية من خلال المبادئ الثلاثة للمذهب الميكانيكي كما أوضحها **هيو إليوت** Hugh Elliot (ت1930م) وهي:

1 – إن قوانين العالم منتظمة، وإن ظهر أحيانا أن العالم يظهر بمظهر الفوضى؛ فإن الفحص الدقيق يوضح أن هذه القوانين الشاملة لابد أن تطاع.

2 – إن الغائية خرافة حيث إن كل ما يحدث في العالم هو نتيجة تفاعل المادة في الحركة.

3 – إن كل أشكال الوجود تتمتع بنوع من الخصائص المادية المحسوسة[3].

إن أول هذه المبادي يعبر بشكل حرفي عن الحتمية؛ فكل قوانين العالم منتظمة لا تتأخر ولا تنخرق وهي واجبة الطاعة لا يمكن تجاوزها بأي شكل كان، ونتيجة لهذه المادية الميكانيكية التي تلبست بالعلم الحديث تم رفض جميع الظواهر البارسيكولوجيّة، رغم أن ظواهر مثل الوعي والإرادة الإنسانية تعجز هذه النظرة الحتمية عن تفسيرها[4].

وكما يقول دكتور **السيد نفادي** فإن القانون العلمي لم يكن يسمح مطلقًا بالاحتمال أو عنصر المصادفة؛ فقد كانت القوانين العلمية التقليدية قوانين ضرورية

(1) محمد باقر الصدر: فلسفتنا، مرجع سابق، ص 313

(2) مهدي كَلشني: القرآن ومعرفة الطبيعة، ترجمة محمد على التسخيري، معاونية العلاقات الدولية في منظمة العالم الإسلامي، طهران، إيران، الطبعة الثانية، 1414هـ، 1993م، ص 127 مرجع سابق، ص 303

(3) انظر: فريد آلان وولف، مرجع سابق، ص 47

(4) جمال نصار حسين، لؤي فتحي، الباراسيكولوجيا بين المطرقة والسندان، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1995م، ص27، 31

مطلقة تقوم على مبدأ السببية واطّراد الحوادث[1] وصارت الوظيفة الأساسية للعلم هي اكتشاف العلاقات السببيّة لظواهر هذا الكون[2].

إذن فإنه في القرن الثامن عشر والتاسع عشر تم تطوير عملية المعرفة العلمية عن العالم؛ حتى أضحت معظم الظواهر مفهومة، وغدا العالم آلة كبيرة يحكمها تدافع القوى الجاذبة والكهربائية، والمغناطيسية، والميكانيكية، وهكذا حدث انفصام بين العلم والدين في الغرب، وصار أهل العلم يقولون: ماذا عسى الله أن يفعل في هذا العالم الذي تحكمه مجموعة من القوانين الحتمية الصارمة، والمنظمة التي تؤلف منظومة كونية شاملة لا مجال فيها للخرق أو التعطيل[3].

من كل ما سبق يمكن أن نقول إن مقولة الحتمية وليدة بيئة معادية للدين أو بمعنى أدق معادية لرجال الدين أُريد من ورائها إضعاف السلطة الكنسيّة لرجال الدين في الغرب.

المطلب الثاني: أثر الحتمية في الفكر الإسلامي الحديث

يمكن القول إن الفكر الإسلامي في القرن التاسع عشر دخل إلى الحداثة بفضل التأثير الكبير للفكر الغربي الحديث والذي كان قد تأسس على مجموعة من العلوم الحديثة، وهذا هو ما أغرى المفكرين المحدثين بتطوير الخطاب الديني ليتماهى بمرور الوقت مع تلك العلوم الحديثة، وفي الوقت نفسه مع الاحتفاظ بالمبادئ الإسلامية الأساسية.

(1) السيد نفادي: الضرورة الاحتمال، بين الفلسفة والعلم، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع2009م، ص 6

(2) السيد نفادي: السببية في العلم، مرجع سابق ص 72

(3) محمد باسل الطائي: مرجع سابق، ص 152، ومابعدها

أوضح د/ **سمير أبو زيد** في كتابه (العلم والنظرة العربية إلى العالم..) أن العلم السائد في فترة النهضة العربية كان هو العلم الحتمي الميكانيكي الحديث[1]، ومن المفكرين العرب الذين عملوا على تبني وترويج العلم الغربي الحديث وخاصة النظرة الطبيعية الميكانيكية نذكر **شبلي شميّل** (ت1917م) و**فرح أنطون** (ت 1922م) ثم **سلامة موسى** (ت 1958م)، فهؤلاء المفكرون جميعًا دعوا لنشر الفكر العلمي المادي الميكانيكي الذي يتأسس على الحتمية السببية وقد رأوا أن التمسك بالعلم الغربي الحديث وبكل مقولاته هو السبيل الوحيد للتقدم[2]، ومن المعروف أن **فرح أنطون** في كتابه (ابن رشد وفلسفته) قد عدّ أهل الأديان عمومًا ويخص منهم المتكلمين المسلمين من الرافضين للسببية وقوانين الطبيعة الثابتة، فهي عندهم مقيِّدة لقدرة الله تعالى وهذا _ كما يذكر_ مرفوض عند أهل الأديان[3].

ويقدم د/**مهدي كَلشني** تبريرًا لتمسك المفكرين المسلمين بمقررات العلم الحديث؛ فيزعم أن تأييد الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا للعلم الحديث قد استهدفوا من وراءه الدفاع عن الإسلام من الاتهامات التي راح يكيلها له المستشرقون، وكذلك للرد على السلطة التي عارضت حركة التحضّر الجديدة[4]، نعم كان ولا يزال هناك معارضة للعلم الحديث من دوائر كثيرة داخل العالم العربي والإسلامي، وهذا ما يؤكده د/ **فؤاد زكريا** (ت2010م) في كتابه (خطاب إلى العقل العربي) حيث يذكر أن هناك أسبابًا جعلت المسلمين يقفون موقف المتشكك والحائر أمام العلم الغربي الحديث؛ ومن

(1) سمير أبو زيد: العلم والنظرة العربية إلى العالم، التجربة العربية والتأسيس العلمي للنهضة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 2009م ص 46

(2) انظر د/ محمد سلامة عبد العزيز: موقف التيار الإصلاحي الديني من تصور الطبيعة في الفكر التنويري بحث منشور في مجلة الدراسات العربية، العدد الثامن والعشرين، المجلد السادس، يونيو 2013م، ص 3289- 3293

(3) فرح أنطون: فلسفة ابن رشد، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، بدون تاريخ، ص 15

(4) مهدي كَلشني: من العلم العلماني إلى العلم الديني، ترجمة سرمد الطائي، دار العادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 1424هـ، 2003م ص 39

ذلك ارتباطه بالاستعمار، ووصفه بأنه علم مادي يتعارض مع روحانية الإسلام، وكذلك كونه نتاجًا لحضارة مسيحية، ويخص د/ فؤاد زكريا بالذكر موقف المسلمين من السببية الطبيعية والحتمية حيث يذكر أنه لا يزال يدور بين المسلمين نقاش حول قبول التفسير العقلاني للعالم أو عدم قبوله وإمكان وجود سببية منتظمة في الطبيعة ودور القوى الغيبية في مجرى الأحداث، وإنه لا يزال هناك مفكرون لهم مكانتهم يدينون العلم التجريبي، كما أن هناك من يستغل أية نقطة ضعف في العلم لينصر الإيمان كمصدر وحيد لليقين ومن أوضح الأمثلة على ذلك استغلالهم انهيار مبدأ الحتمية في الفيزياء من أجل اتهام العلم بأنه مبني على اللايقين[1]، وهذا يوضح مدى حنق الكثيرين من المسلمين من مبدأ الحتمية وما شابهه رغم أنه تم اعتماده كمبدأ أساسي للعلم الحديث؛ لكن رأوا فيه تضييقًا لعمل القوى الغيبية ونكرانًا للكرامات التي يتداولها الناس عن الأولياء والصالحين الذين تتعلق بهم قلوب العامة ولا يرون الدين إلا من خلالهم، لذلك اتخذ المصلحون والمجددون العلم الحديث وأسسه لمكافحة هذا التدين الشعبي الذي كاد أن يصير الشكل الرسمي للإسلام.

ونتيجة لذلك فقد كان أحد الأساليب الأكثر شيوعًا في العالم الإسلامي هو توظيف المفاهيم القرآنية والسنة الشريفة من أجل تقديم صورة للإسلام تنسجم مع العلم الحديث[2]، فهذه إذن سمة عامة وهي محاولة كثير من علماء المسلمين التقريب بين الإسلام والعلم الحديث.

إذن فلعلّ انتشار الخرافة وشيوعها بشكل واضح في بلاد المسلمين واستقرارها في أفكارهم وعلومهم هو الذي ساهم بشكل كبير في توجيه الفكر الإسلامي إلى تبني الحتمية التي كان العلم الحديث يروّج لها كأساس لكل العلوم الحديثة، فقد انزعج المفكرون المسلمون من انتشارُ الخرافة والدجل وارتباط ذلك بالدين الإسلامي مما كان

(1) فؤاد زكريا: مرجع سابق، ص 57، 60، 62

(2) المرجع نفسه ص 45

له أثر كبير على صورة الدين الإسلامي، فضلًا عن أضرارها الوخيمة على المسلمين أنفسهم؛ حيث ساهم انتشار الخرافة في تراجع العقل العربي والمسلم مما أدى إلى ذلك التخلف الحضاري للأمة العربية والإسلامية.

وتأتينا بعض الإحصائيات دالة على سيطرة الخرافة؛ فبعض الإحصائيات تؤكد لنا أن معظم البشر بنسبة 76% لديهم إيمان قوي بظاهرة عجيبة أو خارقة واحدة على الأقل غير مستمدة من الدين، وهناك قرابة 96% يعتقدون بشيء خارق للطبيعة مستمد من الدين[1].

ويمكن أن نقول مع **ول ديورانت** (ت1981م) إن الأديان جميعها مهما كان من صفاء أصولها، لا تلبث _ مع الأسف _ أن تدخل فيها الخرافات التي لا علاقة بينها وبين مبادئها الأولى، وإنما هي تنشأ من العقول الجامدة، لهذا نرى أنّ كثيرًا من العرب والمسلمين يؤمنون بالسحر، ويثقون في قدرة أهل السحر على معرفة الغيب والكشف عن الكنوز وغرس الحب في النفوس، وكذلك شفاء المرضى، ومنهم أيضًا من يعتقد في قدرتهم على مسخ الإنسان إلى حيوان، أو الانتقال من مكان إلى مكان بوسائل خارقة، ويلبس الكثير من مسلمين أو مسيحيين تمائم لترد عنهم الشرور[2].

وهذا ما يقرره **محمد عبده** (ت1905م) حيث يرى أن الخرافات الدخيلة على الدين موجودة عند كل الأمم، حتى عند تلك الأمم المشتهرة بالتنّور وبالتقدم، فهناك الكثير من أهل العلم في الغرب المتقدم يعتقد بشفاء الأمراض عن طريق لمس اليد

(1) جوناثان سي.سميث: العلم الزائف وادعاء الخوارق أدوات المفكر النقدي ترجمة محمود خيال، المركز القومي للترجمة، العدد 2563 ، الطبعة الأولى، 2016م، ص57

(2) ول ديورانت: قصة الحضارة، عصر الإيمان، ترجمة محمد بدران، دار الجيل، بيروت، لبنان، الجزء الثاني من المجلد الرابع (13)، ص128وما بعدها

للمريض وغير ذلك، وكثير من المشتغلين بالفلك يعتقدون بالتنجيم وبتأثير الأفلاك على ما يجري على الأرض[1].

ويوضح **محمد رشيد رضا** (ت 1935م) شيوع وخطر الخرافات، فيذكر أن كثيرًا من المشعوذين والدجالين في عصره وبعض المتصوفة، قد عرفوا أن دعوى امتلاك الكرامات هو أنجح الوسائل لتحقيق المجد الدنيوي، والاستحواذ على قلوب وأموال الناس، حتى اتخذهم الناس آلهة يعبدون من دون الله، وصارت تُطبع كتبهم الفاسدة والمفسدة للعقيدة وتُنشر وتُعدُّ من كتب الدين، ويذكر رشيد رضا أن من الكارثة وجود بعض العلماء المسلمين ممن هم أشد خضوعًا للخرافات من عوام الناس، ويرى أنه كان يجب على علماء الأزهر أن يقوموا بتأسيس جمعية دائمة لتفنيد ونقد تلك الكتب التي تنشر بين الناس، خاصة تلك الكتب التي تمس الدين الإسلامي وتخالف عقائده وآدابه وأحكامه، ونظهر للناس ما يوجد فيها من ضلال وتحذرهم منه، ولكن العكس هو الموجود حيث إن الكثيرين من المنتسبين إلى الأزهر يدافعون عن هذه الكتب وأهلها، وكذلك يردون على المصلحين الرافضين لها، ثم يقدم رشيد رضا تحذيرًا وخاصة للأزهر حيث يؤكد أن الأزهر إن لم ينهض لمكافحة الدجل والخرافات ويقوم بدوره في إرشاد الناس، وتحذيرهم من الكذابين الذين يدعون الكرامات ويتلاعبون بعوام المسلمين، فستكون عاقبة الأزهر وعاقبة أهله كعاقبة معاهد الدين ورجال الشرع في تركيا[2].

وقد أوضح **جوناثان. سي. سميث** في كتابه (العلم الزائف وادعاء الخوارق أدوات المفكر النقدي) أن الاعتقاد بالخرافة له مخاطر كبيرة: منها: تلك المخاطر على

(1) انظر محمد عبده: الأعمال الكاملة: الجزء الثاني، في الكتابات الاجتماعية، تحقيق محمد عمارة، دار الشروق،ط1414،1هـ،1993م،ص 156

(2) محمد رشيد رضا: مجلة المنار،المجلد السادس والعشرون، الطبعة الثانية، 1327هـ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ص 778ومابعدها

المجتمعات كما حدث من كوارث النازية والتي اعتقدت بتفوق الجنس الآري، ومنها: شيوع الطب المكمّل أو البديل وله مخاطر كبيرة، ومنها: التدين السطحي أو العدواني الذي يولد التعصب والحروب مثل الحروب الصليبية[1].

والآن نركز على أحد النماذج الذي تبدى فيها الاعتناق الكامل للحتمية العلمية حينما كان العلم يؤسس كل قوانينه عليها؛ وهذا النموذج هو موقف محمد رشيد رضا من الكرامات المنسوبة للأولياء والتي كثُر ادّعاؤها في ذلك الزمان وعمت بها البلوى، ونبدأ بتوضيح موقف التراثيين من كرامات الأولياء.

جدل كرامات الأولياء في التراث الإسلامي

لقد كان الموقف التراثي من مسألة كرامات الأولياء واضحًا؛ حيث يذكر عضد الدين الإيجي (ت756هـ) و**ابن خلدون**(808هـ) أنها جائزة عند أهل السنة، وواقعة، وكذلك عند **أبي الحسين البصري** (ت436هـ) من المعتزلة، وخالف من أهل السنة اثنان هما أبو إسحق **الإسفراييني** (ت418هـ) وأبي عبدالله الحسين **الحليمي** الشافعي(ت403هـ)[2] فالرأي المشهور عن الأشاعرة هو ما أقره أبو الحسن **الأشعري**(ت324هـ) في كتابه (الإبانة) من أن الله سبحانه قد يخصّ الصالحين بآيات تظهر على أيديهم[3]، إذن فالكرامات تحدث لغير الأنبياء عند أهل السنة، ولا فرق عند أبي حامد **الغزالي** (ت505هـ) بين تلك الخوارق التي تحدث للأنبياء وبين ما تحدث لغيرهم إلا التحدي فقط، وخارق العادة للنبي هو المعجزة، ولغيره من الصالحين يسمى الكرامة[4]، وقد روي **البيهقي**(ت458هـ) في كتابه (دلائل النبوة) خوارق للعادة حدثت

(1)جوناثان سي.سميث: مرجع سابق، ص 67-73

(2)عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي: المواقف في علم الكلام، عالم الكتب – بيروت ،ص370، ابن خلدون: لباب المحصل في أصول الدين، تحقيق د.عباس محمد حسن، دار المعرفة الجامعية ،1996م، ص181

(3) أبو الحسن الأشعري: الإبانة عن أصول الديانة،، ابن زيدون للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى،بيروت لبنان، بدون تاريخ، ص12

(4) أبو حامد الغزالي: الاقتصاد في الاعتقاد، دار الكتب العلمية،بيروت ، لبنان،1424هـ،2004م،ص 107

للصحابة رضوان الله عليهم ولكنه جعلها كرامة للرسول[1]، وروى تاج الدين **السبكي**(ت771هـ) في كتابه (طبقات الشافعية الكبرى) كرامات كثيرة ونسب بعضها للصحابة والكثير لغيرهم، وعدّد لنا فوائد الكرامة الدينية من تربية أو بِشارة أَو نذارة[2]. ويرى **ابن تيمية** (ت728هـ) أن من اجتمع له الدين علمًا وعملًا وجبت له الكرامة إذا طلب ذلك[3].

والشيعة يرون أن للأئمة الأوصياء معجزات تدل على صدقهم، وعلى وكونهم حججا لله[4]، ويروون معجزات لجميع الأئمة الاثني عشر[5].

أما الصوفية فكلهم مجمعون على حدوث الكرامات؛ ودليلهم ما ورد في القرآن الكريم من قصة مريم عليها السلام وغيرها، وماورد كذلك من الأخبار عن الصحابة[6] وأورد تاج الدين **السبكي**(ت771هـ) استدلالات المنكرين من المعتزلة حدوث الكرامات

(1) جورج طرابيشي: المعجزة أو سبات العقل في الإسلام، دار الساقي بالاشتراك مع رابطة العقلانيين العرب، الطبعة الأولى، 2008م ،ص 42 ، روى البيهقي كرامة تسخير الأسد لسفينة مولى الرسول، وكذلك إحياء الحمار الميت لرجل مجاهد من أهل اليمن، وإضاءة عصي الرجلين من أصحاب النبي، انظر:البيهقي: دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، توثيق وتخريج وتعليق د/عبدالمعطي قلعجي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان – دار الريان للتراث،الطبعة الأولى،1408-1988،ج6،ص 45-48، 77

(2) تاج الدين السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو،ومحمود محمد الطناحي، الجزء الثاني، دار إحياء الكتب العربية ،ص 315

(3) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، تحقيق عبدالرحمن محمد قاسم، الناشر مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، 1425هـ ، 2004م ،ج11،ص 331وما بعدها

(4) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار الجامعة لدرر الأئمة الأطهار، مؤسسة الوفاء – بيروت – لبنان – الطبعة الثانية المصححة 1403 هـ 1983 م الجزء89، ص154

(5) جورج طرابيشي: مرجع سابق، ص 107

(6) أبوبكر محمد بن إسحاق الكلاباذي ت380هـ: التعرُّف لمذهب أهل التصوف، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى 1413هـ،1993م، ص 79

ورد عليها، وجعل الفرق بين المعجزة والكرامة أن المعجزة تتميز بدعوى النبوة، ووجوب الإشهار، وتجوز أن تقع بجميع خوارق العادات[1].

وذكر تاج الدين السبكي(ت771هـ) من أنواع الكرامات خمسة وعشرين نوعًا؛ مثل إحياء الموتى، وانقلاب الأعيان، وكلام الجمادات والحيوانات، وطيّ الزمان، ونشر الزمان، وغيرها[2].

ولكن هل يمكن أن تماثل كراماتُ الأولياء معجزاتِ الأنبياء، هناك من بالغ وشطح وأجاز ذلك فقالوا ما كان معجزة للنبيّ يجوز أن يكون كرامة للوليّ، ومعنى هذا أن يجوز للوليّ أن يحيي الموتى، أو يشقّ البحر، وهناك من يضيق مثل أبي القاسم عبدالكريم **القشيري**(ت465هـ) حين صرّح قائلا "واعلم أَنّ كثيرًا من المقدورات يُعلم اليوم قطعًا أَنَّهُ لا يَجُوز أَن يظهر كرامة للأولياء، وبضرورة أَوْ شبه ضرورة يُعلم ذلك، فمنها حصول إِنسان لا من أبوين، وقلب جماد بهيمة أو حيوان وأمثال هذا كثير"[3]، ولكن رغم ذلك فقد روى القشيري كرامات لكثير من الأولياء هي في الحقيقة أعجب من كثير من معجزات الأنبياء، وقد تغافل **ابن حجر العسقلاني**(ت852هـ) عن هذه الروايات، وأعجبه قول القشيري السابق وجعله أعدل المذاهب، ثم نبّه على أن حدوث الكرامات لا يدل بالضرورة على الولاية أو الصلاح كما شاع بين العامة[4]، ويبدو للباحث أن هذا أيضًا رأي أبو بكر **الكلاباذي**(ت380هـ) وكثير من الصوفية فهو يجعل الكرامات من باب الممكنات في الواقع، وإن كانت تخرج عن العادات، أما

(1) تاج الدين السبكي: مرجع سابق، ص 317

(2) المرجع نفسه، ص 338 -344

(3) أبو القاسم عبدالكريم القشيري: الرسالة القشيرية، دار المعارف، القاهرة، تحقيق الإمام عبدالحليم محمود، ومحمود بن الشريف، ج2، ص523

(4) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، المكتبة السلفية، القاهرة، ط1، الجزء السابع، ص383

معجزات الأنبياء فهي تكون بخرق القوانين والسنن الكونية؛ مثل إخراج الشيء من العدم إلى الوجود وقلب الأعيان[1].

إذن فيمكن أن نقول إن أهل السنة يقولون بأن للأولياء والصالحين كرامات، ويروون حسب أسانيدهم كرامات عديدة للصحابة والتابعين، ويجيزون حدوث الكرامات لأي واحد من الصالحين الملتزمين بالشريعة، ويكون من فوائدها لصاحبها أنها تزيده ثقة، ويطمئن قلبه بأن هذه الشريعة من الله، ومرتبطة برب هذا الكون[2].

هناك الاتجاه الآخر في التراث الذي ينكر حدوث الكرامات، مثّله المعتزلة حيث تخوّفوا من التباس الكرامة بالمعجزة، ولذلك أنكر **القاضي عبد الجبار**(ت415هـ) صحة الروايات التي تنسب حدوث الكرامات للصحابة، مؤكدًا أن خوارق العادة ومنها الكرامات لا تحدث إلا للأنبياء المرسلين[3]، كذلك استنبط **الزمخشري**(ت538هـ) إبطال الكرامات[4] من قوله تعالى{عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا} (الجن 27:26) ، ومن خارج المعتزلة هناك **ابن حزم** الأندلسي(ت456هـ) فقد أنكر حدوث الخوارق لغير الأنبياء، ومال إلى رأي المعتزلة حيث يرى أنه لا يقلب أحدٌ عينًا ولا يحيلُ طبيعة إلا الله سبحانه ولأنبيائه فقط سواء تحدوا بذلك أو لا، وأنه لا يمكن وجود شيء من ذلك لأي أحد غير الأنبياء، وقد استدلّ بقوله تعالى{ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}(الأنعام115)، وبذلك فلا تحدث خوارق العادات إلا

(1) الكلاباذي: التعرُّف لمذهب أهل التصوف،ص81

(2) جمال نصار حسين: الشريعة والمعجزة رؤية معاصرة، بحث في مجلة التربية قطر،سبتمبر2004، رقم العدد150، ص 238

(3) القاضي عبدالجبار: المغني في أبواب التوحيد والعدل، تحقيق محمود محمد قاسم، مراجعة إبراهيم مدكور، إشراف طه حسين، الدار المصرية للنشر والترجمة، القاهرة، 1958م، ص241ومابعدها

(4) الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، دار إحياء التراث العربي بيروت، تحقيق عبد الرازق المهدي، ج4 ، ص634

للأنبياء وحدهم أو في زمان بعثتهم سواء كان هذا لمسلم أو لغيره لأنه حينئذ يكون آية للنبي، أما بعد وفاة الأنبياء فلا تحدث خوارق العادات لأي أحد كان صالحًا أو غيره، فلا يجوز قلب الأعيان أو إحالة الطباع إلا في وقت النبوة فقط، لأن ذلك ممتنع في العقل، ولا دليل على وقوعه شرعًا بعد زمن النبوة[1].

هل تأثّر الفكر الإسلامي الحديث بالحتمية في نظرته لكرامات الأولياء

رأينا كيف أن الاتجاه السائد في التراث الإسلامي السني هو القائل بوقوع الكرامات وحصولها للصالحين من المسلمين كما ذكرنا آنفًا، ولكن هل يتابع المفكرون المحدثون من المسلمين هذه النظرة التراثية للكرامة؟

سوف نلاحظ أن التنكر لهذه النظرة التراثية جاء بشكل تدريجي كما يحدث ذلك عادة؛ وذلك نتيجة لتخوّف المفكرين من الاصطدام مع المجتمع الديني والأفكار السائدة فيه، فقد كان من رأي **رفاعة الطهطاوي**(ت1873م) أنّ خرق العادة أو الكرامة قد حدثت لكثير من الأولياء[2]، وكان **محمد عبده** (ت1905م) يرى أن صدور خارق للعادة على يد غير نبيّ أمر جائز عقلًا، ولكنه ينبّه على أنه لا يجب الاعتقاد بوقوع كرامة معيّنة على يد وليّ لله معين بعد ظهور الإسلام؛ وعليه فإنه فيجوز لكل مسلم بإجماع الأمة أن ينكر صدور أي كرامة كانت من أيّ ولي، ولكن يستثني ما ثبت عن الصحابة[3]، واضح من هذا الكلام لمحمد عبده(ت1905م) أنه يمهد لإنكار الكرامة بشكل نهائي، فالمسلم يؤمن بما ينسب إلى الصحابة فقط من كرامات فهم أصحاب النبي وتعد كراماتهم من كرامات النبي فهي حدثت تأييدًا للنبي صلى الله

(1) ابن حزم الظاهري: الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد على صبيح، وبهامشه الملل والنحل للشهرستاني، مكتبة السلام العالمية،1964م، ج5،ص 2، ومابعدها

(2) رفاعة رافع الطهطاوي: نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز، دار الذخائر القاهرة ،ط1، 1419هـ، ص141

(3) محمد عبده: رسالة التوحيد، تحقيق محمد عمارة، دار الشروق، الطبعة الأولى،1414هـ،1994م، ص 183

عليه وسلّم، بينما بعد الصحابة لا يلزم المسلم الاعتقاد بأي كرامة مهما تواترت، وهذا في رأيي تمهيد كما ذكرت لإنكار الكرامات وبشكل نهائي.

أما **محمد فريد وجدي** (ت1954م) فيرى الكرامة بشكل مختلف وينسب حدوثها لقوة الروح؛ حيث يرى أن الأولياء أصحاب الأرواح العالية لهم سلطة على عالم المادة، وذلك لسموّ أرواحهم، وتظهر هذه السلطة أحيانًا بإيقاف فعل النواميس العادية، والتأثير على المادة تأثيرًا خاصًا، وهو ما يسمى بالكرامة وفي القرآن ما يدل على حدوثها للصالحين[1]. فالكرامة حسب هذا التصور تندرج تحت قانون روحي، فكل من لديه قوة في الروح يستطيع أن يقوم بأمور خارقة ولا يخص ذلك الصالحين من المسلمين، ولكن حسب ذلك التصور يمكن للهندوسي وأي أحدٍ كان ممارسة تأثيره على المادة والطبيعة لقوة روحه.

إن سعي محمد فريد وجدي لإثبات الروح وخلودها وبشكل علمي محسوس جعله يتمسك بكل ما يؤيد ذلك كالتنويم المغناطيسي وتحضير الأرواح، فالذي ينام تحت التأثير المغناطيسي يقوم بفعل الخوارق[2].

أما **محمد رشيد رضا**(ت1935م) فقد تأثّر بالحتمية العلمية التي تبنّاها العلم الغربي الحديث، ونتيجة لذلك يؤكد على أنّ الاعتقاد بالكرامة ليس من أصول الإيمان[3]، وكذلك يذكر أنه لا يوجد في القرآن الكريم أو السنة المطهرة أي دليل على طلب حصولها، ولا على مطالبة الناس بالإيمان بها[4].

(1) محمد فريد وجدي: الإسلام في عصر العلم، ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت لبنان ، الطبعة الثالثة ،ص 584

(2) محمد فريد وجدي: دائرة معارف الرابع عشر، القرن العشرين، طبع بمطبعة دائرة معارف القرن العشرين، الطبعة الثانية 1343هـ 1924م،ص 365وما بعدها

(3) المرجع نفسه، ص186

(4) المرجع نفسه، ص408

ويلجأ محمد رشيد رضا إلى **محي الدين بن عربي** (ت 683هـ) ويذكر رأيه في أن الكرامات التي تحدث للصالحين قد تكون مكرًا واستدراجًا، وعلى ذلك فإنه لا يصح أن تسمى كرامة إلا إذا كانت ناتجة عن استقامة أو تنتج استقامة[1]، ورغم أن هذا الكلام لمحيي الدين بن عربي يخالف رأي جمهور أهل السنة الذين يرون أن أية خارقة تحدث للصالحين هي كرامة، إلا إن رشيد رضا يعرض هذا الرأي لابن عربي ويرى أن هذا التصور للكرامة يخفف من الغلو في الكرامات[2]، ويذكر أيضًا تصنيف ابن عربي للكرامات، حيث ذكر ابن عربي أن الكرامات نوعان؛ حسية، ومعنوية، والكرامات الحسية يجب سترها، والكرامات المعنوية هي الكرامات الحقيقية وهي تتمثل في الاستقامة والأخلاق ومعرفة الله، وهذه الكرامات المعنوية لا يعرفها إلا الخواص، بينما الكرامات الحسية كالمشي على الماء وغيره هي الكرامات التي تعرفها العوام[3].

لكن المعروف عن الكرامات أنها أمور حسية فكيف نجعل الاستقامة والأخلاق من الكرامات وهي في الأصل السبب لحصول الكرامات، إن هذه الرغبة عند رشيد رضا للتقليل من شأن الكرامات هي التي جعلته يعوّل على آراء ابن عربي، وفي هذا السياق يبرز رشيد رضا فضل ما يسميه الكرامات المعنوية؛ فيذكر أن الكرامات المعنوية لا ينكرها أحد، وكلها نفعٌ، وليس فيها أي ضرر ولا أي خداع، وكما يرى أن الوليّ المسلم لا يليق به أن يعوّل إلا على هذا النوع لأن معجزة نبي الإسلام كانت معنوية[4]!، وهو يقصد بذلك القرآن الكريم ولكن هل القرآن الكريم معجزة معنوية فقط؟ أليس هو كلمات مسموعة تأخذ ألباب السامعين وتؤثر في شغاف قلوبهم،

(1) محيي الدين ابن عربي: الفتوحات المكية، ضبطه وصححه أحمد شمس الدين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1420هـ،1999م، الجزء الثالث، ص 553

(2) محمد رشيد رضا: مجلة المنار، مرجع سابق، المجلد السادس، ص184، ص185

(3) محيي الدين ابن عربي: الفتوحات المكية، مرجع سابق، الجزء الثالث، ص 553ومابعدها، وانظر محمد رشيد رضا ، مجلة المنار، مرجع سابق، المجلد السادس، ص 184

(4) محمد رشيد رضا: مجلة المنار، المجلد السادس، ص184

فالقرآن الكريم محسوس بالسمع عندما نسمعه، ومحسوس بالعين عندما نقرأه من المصحف.

يقرر رشيد رضا أنه لا كرامة معينة لشخص معين: وهو في ذلك يتابع أستاذه الإمام محمد عبده؛ فيرى أن الكرامة جائزة، ولكن لا يجب على أحد أن يعتقد بكرامة معينة لأحد معين، وهذا في رأيه موافق لقاعدة كتمان الكرامة، وبذلك فإن هذه القصص التي تُثبت لأشخاص معينين كرامات لا نهاية لها لا يُوثق بها، ولا يعوّل عليها، والصواب أن تقاس على أمثالها عند أهل الملل الأخرى فإن سنّة الله فيهم وفينا واحدة، فمن صحت عنده رواية شيء منها بعد التحري فليعرضه على وجوه التأويل[1].

واضح هنا محاولته استنكار الكرامات المنقولة؛ فلابد عنده من عرض الكرامات التي لا شك في سندها على التأويل، وبالتالي من خلال هذا التأويل سنقدم العلم وقوانينه الحتمية وسيتم تأويل تلك الكرامات المنقولة بحيث لا تكون على ظاهرها المعروفة به، ومن المعروف أنّ كثيرًا من المفكرين قد استخدموا التأويل في معالجة معجزات الأنبياء[2]، فكيف بكرامات الأولياء غير الثابتة بالنص القرآني!

وهناك أمر آخر وأساسي في معتقد الكرامات عند رشيد رضا، وهو أن الكرامة لا تخرق السنن الكونية والنظم الطبيعية الثابتة _ وهو ما سنعرض له بشكل أكثر تفصيلًا في الصفحات التالية_ ، فهذه السنن الكونية الثابتة _ بحسب رشيد رضا_ هي ما أرشد إليه القرآن الكريم في قوله تعالى" فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً " (فاطر: 43) وقد راعت أوربا هذه السنن الكونية فحازت التقدم والرقي[3].

(1) المرجع نفسه، المجلد السادس، 116

(2) انظر بحث بعنوان (موقف الفكر الإسلامي الحديث من خوارق الأنبياء، دراسة تحليلية نقدية) مجلة الدراسات الإنسانية والأدبية، كلية الآداب، كفر الشيخ المجلد 21، عدد1، يونيو 2024، من ص 375- 437

(3) مجلة امنار، المجلد الثاني، ص309

ماهي أسباب هجمة رشيد رضا على الكرامات، وهل كان منها الخضوع لمقولة الحتمية؟

إن الشيخ رشيد رضا قد أهمّه ذلك الاعتقاد الخاطئ والخطير للعوام في الكرامات ورأى أنّ مفاسده في غاية الشرّ على الأمة؛ وله تأثير سيئ في الأخلاق، والعادات، وطرق الكسب، والمعيشة، ذلك لأن رسوخ هذا الاعتقاد الخاطئ في أمة، وزواله من نفوس أمة هو السبب والعلة في التقدم والتأخر[1]. إذن فإن محمد رشيد رضا يحملّ فكرة الكرامات وشيوعها المسؤولية في تأخر البلاد الإسلامية ذلك لأنها في رأيه تعمل على الجمود العقلي، وتعرقل البحث العلمي، وتخالف القوانين الطبيعية أو الحتمية العلمية الحاكمة في عالم الطبيعة.

ومن أجل ذلك شنّ رشيد رضا حملة شديدة على تلك التصورات الخرافيّة عن الكرامة، في حين كان الشيخ **يوسف النبهاني** (ت:1932م) من الغلاة في الاعتقاد بالكرامات، حتى إنه راح يجمع الغثّ والسمين من هذه الكرامات في كتابه الذي جاء في مجلدين (جامع كرامات الأولياء)[2]، ومن أجل ذلك كان يَعُدُّ الأفغانيَّ ومحمد عبده وتلميذه رشيد رضا من أعداء الصالحين وذلك نتيجة لحملتهم على هذه الكرامات التي هي في رأي الشيخ النبهاني برهانُ الولاية[3].

ونجمل الآن تفاصيل ذلك التصور الخاطئ للكرامات كما ذكره رشيد رضا في كتابه (الوحي المحمدي):

أ – يعتقد العوامُ أنّ الكرامات من الأمور الكسبية كالصناعات العادية.

(1) محمد رشيد رضا: مجلة المنار، المجلد الخامس، ص939، وما بعدها

(2) انظر يوسف بن إسماعيل النبهاني: جامع كرامات الأولياء، تحقيق إبراهيم عطوة عوض،الناشر:مركز أهلسنة بركات رضا فوربندر غجرات (الهند)، الطبعة الأولى 2001م

(3) محمد رشيد رضا: مجلة المنار، المجلد الثالث والثلاثون، ص367

ب – يظنّ العوامُ أن الصالحين يفعلون الكرامات بإرادتهم في حياتهم وبعد مماتهم ومتى شاءوا.

ج – ونتيجة لذلك فإن العوام يلازمون قبور الصالحين لدعائهم، والاستغاثة بهم، ويتقرّبون إليهم بالنذور، والقرابين؛ معتقدين أنهم يحققون ما يرجون ويكشفون كروبهم.

د – يعتقد كثير من العوام أن باستطاعة هؤلاء الصالحين من أصحاب الكرامات فعل كل شيء، كأن يحيي ويميت[1].

هذه هي تفاصيل ذلك التصوّر الخاطئ للكرامات الذي هاجمه رشيد رضا ومعه المفكرون المسلمون، ويضع رشيد رضا بين أيدينا المفاسد والمضارّ المترتبة على هذا الاعتقاد الخاطئ الذي يصوّر هؤلاء الأولياء متحكمين في الكون، وينقضون قوانينه باستمرار، فمن ذلك:

أ – تسبب هذا التصور في تكذيب كثير من الناس للمعجزات الثابتة للأنبياء، حيث قاسوا المعجزات المنقولة على ما سمعوه من كرامات يرويها العوام دونما تمحيص، وهي في حقيقتها من قبيل السحر والشعوذة[2].

ب – إن قول البعض بأن الدين يعتمد في إثباته على هذه الكرامات قول خطير؛ لأنه إذا ثبت بطلان هذه الكرامات انهدم الدين في نفوس أتباعه[3].

ج – أوقع هذا الاعتقاد الخاطئ كثيرًا من الناس في ضروب من الشرك الأصغر والأكبر، حيث يلتمسون المنافع أو دفع المضرات من غير الله سبحانه،

(1) محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة،1406هـ ص235

(2) محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي، ص236 ،238

(3) محمد رشيد رضا: مجلة المنار، مرجع سابق، المجلد السادس، ص 12

وبواسطة غير سننه المعروفة التي أقام عليها نظام الكون، وكذلك جعل الانتفاع بها عامًّا لجميع خلقه[1].

د – ومن الخطر أن العامة يبيحون لمن يجري على يديه شيء من تلك الكرامات جميعَ المنكرات[2].

هـ – ومن مفاسد هذا الاعتقاد انعدام الثقة بالعقل وأحكامه، ونظام الكون وسننه، مما يضعف بذلك المدارك والعقول، ويخضع الناس للدجالين، وتصير العرافة والكهانة عندهم إيمان، والحكمة (الفلسفة) كفر أو عصيان[3].

و – وهنا يصرّح رشيد رضا بأن الكرامات والخوارق عمومًا تمثل خطورة على العقل البشري؛ فإن من ينشأ في دين يجوِّزُ وقوع خرق السنن الكونية آنًا بعد آنٍ، وفي كل وقت ومن أي أحد، فهذا يكون عقله أسير الأوهام والخرافات؛ ويكون ألعوبة في أيدي الدجالين، لذلك ينتشر القول بالخوارق والكرامات في البلاد التي خيَّمت فيها الجهالة، وعُرِفَ أهلُها بالغباوة والبلادة[4].

ز – ومن هذه المفاسد أن أكثر الأمة قد تركوا الاهتمام بأمورهم العامة معتقدين بأن هذه الأمور موكّلة من الله تعالى إلى رجال الغيب(الأولياء)![5].

ح – كذلك من مفاسد الاعتقاد بهذه الكرامات أنها حجاب دون العلوم الكونية في نظر العوام، وذلك أنهم يرون العلماء يحتقرون الدجاجلة والمشعوذين الذين يدَّعون

(1) المرجع نفسه، 111
(2) المرجع نفسه، ص58
(3) المرجع نفسه، ص 113 ، المجلد الرابع ص 760
(4)المرجع نفسه، ص 13
(5) المرجع نفسه، ص 114

هذه الكرامات، ويحتقرون الذين يخضعون لهم؛ فينسبون ذلك إلى العلم، ويمقتون العلم، ومنهم من يجعله بريد الكفر[1].

إذن فقد كان هذا التصور الخاطئ للكرامات مفسدة كبيرة لهذه الأمة في دينها ودنياها، حيث تشوّه التوحيد في عقول أغلب الناس، ووقعت العداوة للعقل، والبغضاء للعلم، وهذا الذي تسبب في تخلف هذه الأمة وتجمد عقل أبنائها، بينما ساد في الغرب بأن الاعتقاد بهذه الخوارق له مضرات كبيرة على الإيمان، بل هو عقبة كبيرة في طريق الإيمان! وهذا في رأي رشيد رضا هو اعتقاد الخواص في الغرب والشرق لأنه الملائم للعقل الحديث وهو كذلك يوافق القرآن الكريم![2].

يظهر مما سبق حرص رشيد رضا على موافقة القوانين العقلية والقواعد العلمية الحديثة خاصة الحتمية والسببية والتي عبر عنها بالسنن الكونية، وجعل الكرامات والتمسك بها ينافي تلك السنن الكونية الثابتة مما يمثل خطورة على العقل البشري الذي يعتمد السببية وغيرها من قواعد العلم وكذلك خطورة أكبر على النظرة العلمية للكون والطبيعة.

رفض رشيد رضا إمكانية حدوث أيّة خوارق كونية بعد النبي (صلّى الله عليه وسلم)

يرى رشيد رضا أن هناك سننًا للكون وقوانين ثابتة، وهي لا تتغيّر ولا تتبدّل محاباة لأيّ أحد، ولا يمكن أن نثبت شيئًا مخالفًا لذلك إلا ببرهان يدعمه العقلُ والحسُ وأن يكون هذا الأمر لحكمة واضحة[3]، وعلى ذلك فإنه لا يمكن أن تحدث خوارق

(1) محمد رشيد رضا: مجلة المنار، المجلد السادس، ص 114 ،115

(2) المرجع نفسه، ص 115

(3) انظر محمد رشيد رضا: تفسير المنار، مرجع سابق، الجزء الحادي عشر، ص 241

كونية بعد النبي الخاتم؛ فقد أُغلق بموته باب المعجزات والخوارق التي تخرق النظام الطبيعي للكون، وقد أوضح خلاصة رأيه في ذلك كالآتي[1]:

(أ) إنّ الله سبحانه قد أتْقن كل شيء خلقه؛ فجعله بإحكام ونظام، وسنن مطردة ربط فيها الأسباب بالمسببات.

(ب) إنّ سنن الله تعالى في إبداع خلقه لا يحيط بها علمًا غيرُه، وكلما ازداد البشر فيها نظرًا وتجربة، ظهر لهم من أسرارها ما لم يكونوا يعلمون، ومن منافعها ما لم يكونوا يتخيلون.

(ج) إنّ الأصل أو القاعدة في كلّ ما يحدث في هذا العالم أن يكون جاريًا على نظام السببية، وقد أخبرنا الوحي بأنه لا تبديل لها ولا تحويل، فكلّ خبر عن حادث يقع مخالفًا لهذا النظام فالأصل فيه أن يكون كذبًا، فإن كان قد وقع فلا بد أن يكون له سبب من الأسباب الخفية التي يجهلها المُخبر.

(د) إن آيات الله كالمعجزات وغيرها من خوارق العادات كالكرامات التي تجرى على غير سننه لا يثبُت العلم بها إلا بدليل قطعيّ، وقد كان من حكمته أن أيّد بعض المرسلين بشيء منها لإقامة حجتهم، وقد انقطعت هذه الآيات ببعثة خاتمهم (صلى الله عليه وسلم)، وسبب ذلك أو حكمته ختم النبوّة برسالته، وجعل ما أوحاه إليه – من (القرآن) – آية مستمرة ودائمة، وهداية عامة للبشر أجمعين مدة بقائهم في الدنيا.

ولو كان للبشر حاجة بعد القرآن والنبي إلى الخوارق _كما يدّعي القائلون بالكرامات _ لما كان لختم النبوّة معنى، وإذ كان لا يجب على مسلم أن يؤمن بوقوع كرامة كونية خارقة للعادة بعد النبي الخاتم(صلى الله عليه وسلم) فلا يضرّ مسلمًا في دينه أن يعتقد كما يعتقد أكثر عقلاء العلماء من أن ما يدّعيه الناس من الكرامات

(1) محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي، مرجع سابق، ص245 - 249

أكثره كذب، وبعضه صناعة، أو تأثير نفس، أو شعوذة وسحر، وأقلّه من خواص الأرواح البشرية العالية، وعلامته أن يكون علمًا صحيحًا يوافق النقل والعقل، أو عملًا نافعًا مشروعًا، وأن يكون من صدر عنه مؤمنًا صالحًا.

(هـ) – الإسلام يرفض الخوارق/ الكرامات، ويؤكد ثبات القوانين الطبيعية لأن زمن الوحي والمعجزات قد انتهى به فلن يعود، وأن لله في الخلق سننًا لن تتغير، فثبت بهذا أن الإسلام يتفق مع قوانين العلم الحديث، فهو يحكم بأن زمن المعجزات قد مضى ولا يُكَلَّف الآخذ به بأن يعتقد بخارقة على يد أحد الناس بعد الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام –"[1].

ونتيجة لكل ما تقدّم فإن كل ما يروى من الكرامات بعد النبي الخاتم ليس فيه خرقٌ أو تعطيلٌ للنظم الطبيعية، وإن ظهر ذلك للناس، ولكن بعد النظر والتقصي تبدو الحقيقة المؤكدة وهي ثبات النظام الطبيعي واطّراده وسيطرة الحتمية على عالم الطبيعة رغم كل ما ينقل من مرويات هنا وهناك.

يتضح مما سبق إصرار (رشيد رضا) على متابعة العلم الحديث وخاصة قانون الحتمية وإظهار الإسلام متوافقا مع تلك الحتمية التي تبناها العلم الحديث، كما سبق أن ذكرنا بعدما أصبحت الحتمية هي العمود الفقاري للعلم الحديث، وأصبح الكون مغلقًا أمام أي تدخل خارجي تسير أحداثه وفق العلية والسببية التي لا يخرج عنها شيء وتم استبعاد التدخل الإلهي بشكل حاسم[2].

فإن كان رشيد رضا وغيره من المفكرين المسلمين لم يستطيعوا رد معجزات الأنبياء كونها مذكورة في القرآن الكريم فإنهم لم يتسامحوا مع الكرامات المنسوبة للأولياء؛ وتمسّكوا في ذلك بالحتمية العلمية التي رأوا أنها تمثل إحدى صور السنن

(1)محمد رشيد رضا: مجلة المنار،المجلد السادس، ص 17

(2) يُمنى طريف الخولي: فلسفة العلم في القرن العشرين، ضمن سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد ديسمبر2000م ص 102

الإلهية التي نص عليها القرآن الكريم وأكد عدم تبديلها أو تحويلها في قوله تعالى { اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا} (فاطر 43) ورغم أن سنة الله هنا واضحة من السياق أنها عذاب الله الذي لابد أن يقع بالكفار والمنافقين والماكرين[1]. وكذلك قوله تعالى {سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا } (الأحزاب 62) وواضح من سياق الآيات أنّ سنة الله هنا تعني أن من سنة الله أنه يؤدب المنافقين والفسقة المفسدين في الأرض[2].

إذن فإنه رغم وضوح معنى سنّة الله في هذه الآيات، والتي تعني في المجمل أن من سنة الله أنه يعاقب المجرمين والمعتدين، ولا يتخلف ذلك أبدًا في أي زمن، فقد أهلك سبحانه وتعالى قوم نوح وقوم لوط وأهلك قوم عاد وثمود وأغرق فرعون وجنده، فهذه سنة الله التي لم تتبدل في الماضي ولم تتبدل في المستقبل أن الله يهلك الظالمين والمجرمين، ورغم ذلك فقد استخدم المفكرون المسلمون في العصر الحديث هذه الآيات على أن المقصود منها القوانين الطبيعية وهذا منهم تكلّف بعيد، ولكنهم أرادوا موافقة العلم الحديث وقوانينه فعملوا على استخدام مثل هذه الآيات وعرضها كأنها موافقة لقوانين الحتمية والسببية.

المبحث الثاني:

اللاحتمية، وأثرها في الفكر الإسلامي الحديث

في هذا المبحث نعرض لمفهوم اللاحتميّة وتاريخها وعلاقتها بالعلم، ونحاول رصد تأثيرها في الفكر الإسلامي الحديث وخاصة في توجيه نظرة محمد رشيد رضا إلى كرامات الأولياء.

المطلب الأول: اللاحتمية مفهوم، علاقة بالعلم، وتاريخ

(1) محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، الدار التونسية للنشر – تونس، 1984، ج22، ص 338

(2) محمد سيد طنطاوي: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر، الفجالة، القاهرة، 1998، ج11، ص 249

اللاحتميـة Indeterminism: هـي نقيض الحتمية، وهـي الاعتقاد أن الظواهر الطبيعية والإنسانية لا تخضع لنظام، وهي قسمان:

القسم الأول: اللاحتميـة الذاتيـة، وهـي الاعتقاد أن العقل عـاجز عـن التنبـؤ بحوادث الطبيعة لعجزه عن الإحاطة بأسبابها ونتائجها.

القسم الثاني: اللاحتمية الموضوعية، وهي نفي الحتمية في الظواهر الطبيعية والإنسانية نفيًا مطلقًا[1].

إذن فحسب الوجهـة اللاحتميـة فـإن ظـواهر الكـون ذات منشـأ عشـوائي غيـر محدد وغير معروف، ولا توجد قوانين ثابتة ومنتظمة، ولا يمكن التنبؤ بأي ظاهرة[2].

وقد يظن البعض أن اللاحتمية تعني أن النظام منعدم في الكون وأنه قائم على الفوضى وأنه غير قابل للتعقل نتيجة لذلك، ولكن ذلك ظن خاطئ؛ حيث ترى د/ يمنـى الخـولي أن مبدأ اللاحتميـة يطـابق مقتضـيات العقل والعقلانيـة، وهـي تعنـي أن تعاقب الأحداث لا حتميّ وفقًا لقوانين احتمالية وليست عليّة أو حتمية وهذا كما تذكر لا يعني الفوضى أو العماء ولكن الأحداث مترابطة ومنتظمة وقابلة للتعقّل والتفسير القانوني[3]، ويرى آخرون أن اللاحتمية تعني أن هناك نظامًا كونيًا ولكنه نظام مفتوح يسمح بوجود بعض الاستثناءات من التحديد المسبق[4] وبذلك لا تؤدي اللاحتمية إلى إنكار وجود الله كما يزعم البعض حين رأوا أن اللاحتمية تنفي السببية والحتمية والنظام، وكان إثبات وجود الإله مؤسسًا على السببية حيث يعد الإله السبب الأول

(1) جميل صليبا: المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ج2، ص 260_261

(2) إبراهيم زروق، إشكالية المعرفة، مرجع سابق، ص 354

(3) يمنى الخولي: فلسفة العلم من الحتمية إلى اللاحتمية، مرجع سابق، ص 390ومابعدها

(4) محمد هاني خليل السيد أحمد : مبدأ اللاحتمية عند كارل بوبر، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، 1995م، ص 32

الـذي ترجـع إليـه كـل الأسـباب فقـد أعلـن أحـد مشـاهير اللاحتميـة وهـو **هـايزنبرج** (ت1976م) أنه لا يصح الربط بين رفض السببية والحتمية وإنكار الذات الإلهية[1].

فإذا كانت الحتمية تعني وقوع المسبَّب وجوبًا إذا توفرّ السبب، فإن اللاحتميّة لا تقبل هذا الوجوب بل ترى أن حدوث المسبَّب عند توفرّ السبب أمر جائز وليس واجبًا، فيمكن أن يحدث وممكن أن لا يحدث فهو أمر احتمالي وليس حتميًّا[2].

يمكننا القول إنه بعد أن بلغت الحتميّة هرمها المقدس في مجال العلم مع كل من نيوتن ولابلاس _كما مرّ ذكره_ حيث ادّعت أن النظام الكوني محكوم بقوانين ثابتة تساعدنا على التنبؤ بالظواهر قبل وقوعها استنادًا إلى الحالات السابقة المشابهة لها، وهذا وإن طُبّق على العالم الماكروفيزيائي، فإنه اصطدم بجملة من المشاكل في العالم المايكروفيزيائي، مما حدا بالعلماء إلى إعادة النظر في الحتمية العليّة، مما أدى في نهاية المطاف إلى انهيار الحتمية واعتماد اللاحتمية التي تُعد سمة أساسية في الفيزياء الكوانتية، والتي صار من مبادئها الاحتمالية[3].

إذن فقد اتفق المتخصصون على أن هناك عمليّة تحول حقيقية في الفكر العلمي **بدأت منذ الثلث الأول من القرن العشرين**، والسمة الجوهرية لهذه العملية هي التحول من الحتمية إلى اللاحتمية[4]، وعليه يمكن القول إن الفكر العلمي المعاصر هو علم غير حتمي وغير ميكانيكي[5]، والبعض يرى أن التحول بدأ قبل ذلك بكثير حيث إنه مع بزوغ علم الديناميكا الحرارية؛ قريبًا من عام 1850م بدأت الشكوك تحوم

(1) د/ خمري رضا، نقد مبدأ السببية عند هايزنبيرج، مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية، تصدر عن مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2021، مجلد9، عدد2، ص137

(2) د/ محمد باسل الطائي: دقيق الكلام، مرجع سابق 184

(3) رابح عيسو، مرجع سابق، ص 277

(4) سمير أبو زيد: العلم والنظرة العربية إلى العالم، مرجع سابق، ص 27

(5) المرجع نفسه، ص 128

حول المذهب المادي[1]؛ حيث بدأت دراسة السوائل والغازات بالأسلوب الإحصائي وكانت هذه بداية الثورة الاحتمالية أو اللاحتمية؛ فقد اهتز من حينها الثقل العلمي للنظرة الحتمية، وأصبح الالتزام بالحتمية إيمانًا بغيب ليس عليه دليل، وفي ثمانيات القرن التاسع عشر كان الفيزيائي الاسكتلندي **جيمس ماكسويل**(ت 1879م) يدعم ويقوي الشكوك حول الحتمية[2].

وتذكر د/ **يمنى طريف الخولي** أنه مع ثورة **النسبية**[3] **والكمومية**[4]، وعلوم الذرة، والإشعاع التي اجتاحت القرن العشرين، ومع فيزياء اللاحتمية المعاصرة قد انهارت دعائم العليّة، ولم يعد أحد من العلماء يبحث عنها، إنهم يبحثون عن معاملات الترابط الإحصائي لا العلل المحتمة، وعن التفسيرات لا الأسباب، وقد

(1) داود خليفة: نظرية الفوضى وهدم التصور الحتمي، مجلة الخلدونية للعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة ابن خلدون، تيارت، الجزائر ، 2013، المجلد 6، عدد1، ص 439 وما بعدها

(2) انظر: عمرو شريف، المعلوماتية البرهان الأكبر على الربوبية، نيو بوك للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2018م، ص 50 ومابعدها

(3) غيّرت نظرية النسبية المفاهيم الفيزيائيّة الأساسية، المتعلّقة بالكتلة، والطاقة، والمكان، والزّمان، وعدّلت نظريات الفيزياء الميكانيكيّة التي كانت سائدة منذ قرنين، فقد نصّت النسبيّة على أن حركة الأجسام تكون نسبيّة مع تغيُّر الوقت، وأن مفهوم الوقت لم يعد ثابتًا أومحدّدًا، وربطت النسبيّة بين الزّمان والمكان فيما يُسمى الزّمكان. للتوسع انظر(ألبرت أينشتاين، النسبية، النظرية الخاصة والعامة، ترجمة د/ رمسيس شحاتة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة 2000م)

(4) الكمومية أو فيزياء الكم، هي الفيزياء التي تهتم بدراسة المادة والضوء في المستوى الذري والدون الذري، بعد أن ثبت فشل الفيزياء الكلاسيكية في التعامل مع بعض الظواهر مثل إشعاع الجسم الأسود، والكهروضوئية، ومن أهم أفكار الكمومية أن الطاقة تأتي على شكل حزم منفصلة أو كمّات، ومبدأ عدم التحديد، وما يعرف بالخاصية الجسمية – الموجية للجسيمات دون الذرية، للتوسع انظر (بول ديراك، مبادئ ميكانيكا الكم، ترجمة د/ محمد أحمد العقر، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، ط1، 1431هـ، 2010م)

تبخرت فكرة القانون فقد أضحى القانون العلمي مجرد فرض ناجح، وسيتلوه ما هو أنجح منه[1].

إن النظرية الكمومية أدت إلى رفض الحتمية أو على الأقل رفض صورتها السطحية التي قال بها لابلاس (ت1827م)، فهذه النظرية الجديدة تستلزم أن نعطي للقوانين صيغة إحصائية وأن نتخلى عن السببية، ولم تعد القوانين حتمًا محتومًا بل احتمالًا راجحًا[2]، بينما نظرية النسبية لا تنفي الحتمية أو تؤكدها لكنها قوضت الإطار الأنطولوجي للحتمية وهو التصور الميكانيكي[3].

إذن فقد استمر مبدأ الحتمية هو العمود الفقري للعلم حتى نهاية القرن التاسع عشر ولكن مع النصف الثاني من القرن التاسع عشر ظهرت أزمة الفيزياء الكلاسيكية حيث فشل التصور الحتمي الميكانيكي في التعامل العالم الأصغر عالم الذرة والإشعاع، ومع الوقت أصبح مبدأ الحتمية معرقلًا للتقدم العلمي، وكشفت الذرات والتي هي لبنات الكون عن خطأ الحتمية والعلّية والضرورة واليقين واطّراد الطبيعة، وأصبحت الأبستمولوجيا المعاصرة يبلورها مبدأ اللاحتمية[4].

(1) يمنى طريف: الطبيعيات في علم الكلام، مرجع سابق، ص 92 ، وفلسفة العلم من الحتمية إلى اللاحتمية، مرجع سابق، ص 321 حتى ص331

(2) خمري رضا، نقد مبدأ السببية عند هايزنبيرج، مرجع سابق، ص150

(3) انظر سليمة دوسن، وعبد العزيز بن يوسف: طبيعة العالم الفيزيائي في العلم المعاصر، مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية،الجزائر، 2023م، عدد1، ص13، وانظر د/ يمنى الخولي: فلسفة العلم من الحتمية إلى اللاحتمية، مرجع سابق، ص318

(4) يمنى طريف الخولي، مشكلة العلوم الإنسانية، تقنيتها وإمكانية حلها، دار الثقافة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1996م ص 196ومابعدها

ويضيف دكتور/ **سمير أبوزيد** أن **الكاوس** أو الفوضى المنظمة[1] هي حال تثبت أن الحتمية الميكانيكية ليست فقط غير سارية على مستوى الجسيمات دون الذرية، والمستوى الحيوي والإنساني، وإنما هي أيضا غير سارية بالكامل حتى في المستوى الكبير مستوى الفيزياء الطبيعية، الذي ظل دوما المثال على تحقق الحتمية الميكانيكية في الطبيعة[2].

ويرى د/ رابح عيسو أنه ينبغي اعتبار نظرية **الحركة للغازات**[3] هي أساس انهيار الحتمية، وكان **لمبدأ اللايقين** أو الارتياب للفيزيائي الألماني **هايزنبرج** (ت1976م) والذي أعلنه في عام 1927م أثره الكبير؛ حيث أكدّ أنه لا يمكن تحديد موقع وسرعة الإلكترون في الوقت نفسه، وبذلك أصبح من المعترف به أن الحادث الذريّ المنفرد لا يتحدد بقانون سببي بل يخضع لقانون احتمالي[4].

ويرى د/ **محمد باسل الطائي** أن مفهوم اللاحتمية قد برز نتيجة لاعتماد التصور الموجي للجسيمات والذي قادت إليه تجارب وظواهر فيزيائية مطلع القرن العشرين فبدلًا من النظر إلى الجسيم المادي على أنه شيء متحيّز وغير قابل للانقسام أصبح حسب التصور الجديد موجة ممتدة تخضع للتبديل والتغيير المستمر، وبعد إمكانية التنبّؤ في الفيزياء الكلاسيكية أصبح من المستحيل تحديد موقع وسرعة

(1) الكاوس أو الفوضى المنظمة هي نظرية مشهورة باسم أثر الفراشة، وهي تعني أن هناك أحداثًا أولية بسيطة لا تدخل في الحسابات تؤدي مع الوقت إلى نتائج كبيرة، مما يؤكد عدم القدرة على التنبؤ، انظر سمير أبو زيد: العلم والنظرة العربية إلى العالم، مرجع سابق، ص 295 ومابعدها

(2) سمير أبو زيد: العلم والنظرة العربية إلى العالم، مرجع سابق، ص 297

(3) من قوانين الحركة الجزئية للغازات أن حركتها عشوائية وفي كل الاتجاهات وبسرعات متفاوتة انظر د/ سهام محمود خصاونة، أساسيات العلوم العامة، دار المنهاج للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 1435هـ، 2014م، ص 35

(4) رابح عيسو، مرجع سابق، ص 383 -385 ، ود/ خمري رضا، نقد مبدأ السببية عند هايزنبيرج، مرجع سابق، ص137

الجسيم في الوقت نفسه ومن ثم لا يمكن التنبّؤ بمسار الجسيم بشكل دقيق، وهذا هو مبدأ اللايقين أو اللاتعيين وبذلك ظهرت الاحتمالية فأصبح التعامل مع الوقائع احتماليًا وهذا ما جعل الحتمية في خبر كان، لقد أصبحت الحوادث الفيزيائية تتبع سلوكيّة الإمكان والتجويز بدلًا من الوجوب والحتم؛ فصار الجزم بوقوع الحوادث على سبيل الحتم غير وارد في التصور الجديد(1).

أصبحت الحتمية وبصورتها الكلاسيكية غير مقبولة عند علماء الفيزياء فهذا **سير آرثر ستانلي أدنجتون** (ت1944م) عالم الفيزياء والرياضيات والفلك البريطاني في كتابه (فلسفة العلم الفيزيائي) يؤكد أن نظام الفيزياء لم يعد حتميًّا، وأصبح الاحتمال هو الملمح المميز للعالم الموضوعي(2)، ويذهب الفيزيائيّ الألمانيّ ومؤسس فيزياء الكم **ماكس بلانك**(ت1947م) إلى أن الحتمية فكرة فارغة المحتوى رغم فضلها في تشجيع العلماء على البحث وكذلك يرى أن السببية فكرة غريبة وغير منهجية وغير مستقرة(3)، وعند فيلسوف العلم **كارل بوبر** (ت1994م) فإنه حتى فيزياء نيوتن لا تدعم الحتمية، ولا يمكن بحال أن يخضع العالم المايكروفيزيائي للتفسيرات الحتمية، وخلافًا للكثيرين قدّم بوبر براهين جديدة لرفض الحتمية لم يعتمد فيها على فيزياء الكم، وهذا يعني أنه حتى بدون فيزياء الكم فإن الحتمية أمر غير مقبول علميًا(4).

وكما ترى د/ يمنى الخولي أن العلم قد تجاوز مبدأ الحتمية بل سحقه سحقًا وأصبحت كل قضية من قضايا العلم المعاصر ترفض أي دعوى للحتمية وصار علم

(1) انظر، محمد باسل الطائي: دقيق الكلام، مرجع سابق، ص 184-186

(2) انظرآرثر ستانلي أدنجتون: فلسفة العلم الفيزيائي، ترجمة أحمد سمير سعد، دار أفاق للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2019م، ص 211

(3) Sidney Hook: Determinism and Freedom In the Age of Modern Science, Collier Book, New York, First Eddition, 1961, p 44, 45

(4) محمد هاني خليل السيد أحمد : مبدأ اللاحتمية عند كارل بوبر، مرجع سابق، 1995م، ص 179

القرن العشرين علمًا لا حتمي[1]، وثبت أن الحتمية خرافة لا تقوى أمام النقد التحليلي[2].

إذن فقد حلّ مبدأ اللاحتمية مكان الحتمية وأصبحت اللاحتمية هي المبدأ والمرجع التفسيري المعتمد للعلم عند بحث الظواهر الطبيعية، فصارت هي الأساس الجديد الذي يُراعى من قبل جماعة العلماء، ومن ثمّ يدافعون عنه صراحة.

ويعتقد بعض مفكرينا أن هذه النظرة اللاحتمية تتوافق مع النظرة الإسلامية للعلاقات في الطبيعة، حيث يقرر د/ سمير أبوزيد أن النظرة العربية الإسلامية للعلاقات في الطبيعة غير حتمية، والعلاقات حسب القرآن تتسم بمبادئ عامة هي:

1 – هناك علاقات سببية لا يمكن تحديدها بشكل كامل.

2 – لا يمكن الجزم مسبقًا بنتيجة معينة في حالة معينة (مبدأ اللاحتمية)

3 – العلاقات السببية على المستوى الكلي ثابتة بحكم وجود قوانين عامة ثابتة لا تتغير

4 – يمكن استخلاص العلاقات السببية شبه الحتمية من ملاحظة الطبيعة[3]

ويرجع د/ سمير توقف تقدم العلم في الحضارة الإسلامية إلى أنه صار مثل العلم الحديث يتبنى النظرة الميكانيكية الحتمية مما جعله متناقضًا مع النظرة الإسلامية التي تتسم باللاحتمية ومن ثم توقف تقدم العلم الإسلامي لعدم الاتساق[4].

(1) د/ يمنى الخولي: فلسفة العلم من الحتمية إلى اللاحتمية، مرجع سابق، ص 24

(2) المرجع نفسه، ص 289

(3) سمير أبو زيد: العلم والنظرة العربية إلى العالم، مرجع سابق، ص 128 وما بعدها

(4) المرجع نفسه ص 144

المطلب الثاني: أثر اللاحتميّة في التوجيه الجديد للفكر الإسلامي الحديث

إذا راجعنا مفهوم اللاحتمية وجدنا أن من أحد معانيه ما يسمّى اللاحتمية الذاتية، وهي الاعتقاد أن العقل عاجز عن التنبؤ بحوادث الطبيعة لعجزه عن الإحاطة بأسبابها ونتائجها[1]، ومعنى هذا أن الطبيعة لها نظام ثابت وقوانين ثابتة أو حتميّة ولكن من العسير معرفة هذه القوانين وتلك الأسباب الحقيقية وراء الظواهر الطبيعية[2].

وهذا المعنى نجده عند رشيد رضا بعد أن خفّف من هجومه على الكرامات؛ حينما يقرر أن **كل الكرامات تجري وفق السنن الكونية وإن لم يُعرف سببها وعلتها**، حيث يصرُّ رشيد رضا على أن جميع ما يحدث للصالحين مما ليس معهودًا ويبدو للناس خارقًا للعادة هو في الحقيقة ليس خارقًا للنواميس الكونية، وإنما يحدث وفق السنن والنظام الكوني، فيقول: "وإنني لم أنكر جواز الكرامات ولا وقوعها، ولكن بيّنت أنها لا تكون مخالفة لسنن الله تعالى في خلقه بتغيير أو تبديل أو تحويل، لأن الله تعالى أخبر بأن سننه لا تتبدل ولا تتحول، وإنها لا تكون معتادة كأنها صنعة بيد الولي"[3].

ومن ثمَّ يرى رشيد رضا أن ما يحتجُّ به المحتجون من الكرامات التي وردت في القرآن الكريم لا تخرج عن السنن الكونية! وذلك مثل إلهام أم موسى عليه السلام، وكذلك ما أكرمت به السيدة مريم _ عليها السلام _ من كلام الملائكة لها، فليس في هذين الأمرين_ كما يذكر_ مخالفة لسنن الله تعالى في الخلق! ذلك لأن الإلهام في رأيه لا يزال يقع في كل عصر لأصحاب النفوس العالية، فهو كرامة اختصهم الله بها،

(1) جميل صليبا: المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ج2، ص 260_261

(2) السيد نفادي: الضرورة والاحتمال، مرجع سابق، ص 14

(3) محمد رشيد رضا: مجلة المنار، المجلد الحادي عشر، ص 910

وأما كلام الملائكة فلم يثبت لغير الأنبياء بوجه قطعي إلا لمريم عليها السلام، فإن كانت غير نبيّة فهو كرامة لها تدلّ على جوازه لغيرها، ويذكر رشيد رضا أنه قد ورد في بعض الآثار الظنية وقوع ذلك لغيرها، ويمكن أن يكون كلام الملائكة لغير الأنبياء من قبيل الإلهام، وأما الآيات الأخرى فإنها توجد في كل عصر ويسميها الفلاسفة (فلتات الطبيعة) والمؤمن يستدل بها على قدرة الله تعالى، **ولا يستنكر أن يكون لها أسباب خفية** لم يُطلِع الله تعالى عليها عباده: { وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً }(الإسراء : 85)[1].

وعن الأحاديث التي روت أخبار كرامات الصحابة، يرى رشيد رضا أنّ كثيرًا منها غير صحيح؛ مثل حكاية نداء عمر رضي الله عنه لسارية[2]، وإلقاء خطابه في النيل ليفيض[3]، أما ما صحّ فليس فيه خرق للطبيعة أو تعطيل لسنن الكون؛ وإنما هو من باب إجابة الدعاء والإلهام والبركة[4] أو تأثير نفس في نفس فهو عنده من السنن الإلهية[5].

(1) المرجع نفسه، المجلد الثاني، ص 488وما بعدها

(2) روى أحمد عن عبد الله بن عُمر، أن عُمر بن الخطاب بعث جيشًا، وأمرّ عليهم رجُلًا يُدعى سارية، قال :فبينا عُمرُ يخطُبُ الناس يومًا، قال :فجعل يصيحُ وهُو على المنبر: يا ساري الجبل، يا ساري الجبل، قال :فقدم رسُولُ الجيش فسألهُ، فقال :يا أمير المؤمنين، لقينا عدُونا فهزمناهُم، فإذا بصايحٍ يصيح: يا ساري الجبل، يا ساري الجبل، فأسندنا ظُهُورنا بالجبل فهزمهُمُ اللهُ، فقيل لعُمر، يعني :ابن الخطاب: إنك كُنت تصيحُ بذلك (أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة، تحقيق وصيّ الله محمد، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 1403هـ، 1983م ج1، ص269)

(3) رواه ابن عبد الحكم في كتابه فتوح مصر والمغرب، وخلاصة القصة أنه لما فتح عمرو بن العاص مصر جاءه بعض من أهلها وقالوا له إن من عادتهم إلقاء فتاة بكر في النيل ليجري ويفيض، فكتب عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب فأرسل له خطابًا وأمره أن يلقيه في النيل، ففاض النيل، انظر عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، أبو القاسم المصري (ت ٢٥٧هـ): فتوح مصر والمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، 1415هـ، القاهرة ص 176وما بعدها

(4) مجلة المنار، المجلد الثاني، ص 548-552

(5) المرجع نفسه، ص 659وما بعدها

وهنا **يضع رشيد رضا قاعدة للتعامل مع الكرامات** فإنه يجب _حسب رأيه_ على مَن يرى بعينه كرامة، أو جاءته متواترةً وعلم أنها ليست خداعًا، وعلم أنّ صاحبها ليس من أهل التلبيس والشعوذة، فإنّ له أن يقيسها على ما قد عُرف تأويله بأن يقول: إن كثيرًا من الخوارق أو الكرامات كان يُظن أنها خارجة عن سنن الكون ثم ظهر أنها لم تكن شاذة عن تلك السنن الإلهية، وهذا الذي أراه هو مثل تلك في ذاك الزمان، فيجوز أن يظهر له مثل ما ظهر لها من السبب، وتزول الغرابة ويبطل العجب!(1).

ويرى رشيد رضا أن هذا ما يجب أن نفعله دائمًا مع الكرامات، لأن ذلك _كما يقول_ هو الذي عليه جميع العقلاء في هذا العصر، الذين يتوقعون ظهور علل وأسباب جميع الغرائب التي حدثت في العالم حتى معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام!(2).

انظر إلى هذه الثقة في العلم الحديث وكيف يراهن رشيد رضا عليه، ويثق كل الثقة أنه سيكشف كل غامضة وعجيبة حتى ما حدث في الماضي من معجزات الأنبياء رغم عظمتها ومخالفتها الواضحة لقوانين الحتمية، فكيف بكرامات الأولياء؟

إذن فلا حقيقة للكرامات _عند رشيد رضا_؛ حيث إن العلم قد كشف الستار عن أكثرها، فتبين من الاستقراء أن منها ما له أسباب علمية صحيحة كان يعرفها بعض الناس فيكتمها عن الآخرين؛ لما يكون له بها من السلطان عليهم، ومنها ما هو حيل وشعوذة (3).

وهكذا فإن كل ما حدث ويحدث ويبدو وكأنه خوارق للنظام الطبيعي من كرامات إنما هو في حقيقته ليس خارقًا للنظم الكونية، أو الحتمية، وإنما يحدث حسب

(1) المرجع نفسه، المجلد السادس، ص 58،59
(2) المرجع نفسه، ص 58،59
(3) المرجع نفسه، ص 13_14

الأسباب والعلل الكونية ولا يتجاوزها بأي حال، ولكن لا يظهر لنا هذا إلا بعد حين؛ أي بعد تقدّم العلوم التي تكشف ما كان خافيًا وتوضح ما كان غامضًا، وهذا يوافق المعني الذاتي لمفهوم اللاحتمية كما ذكرناه آنفًا.

إن المثال القوي على ذلك هو استحضار الأرواح الذي هو عند رشيد رضا لا يُعد خرقًا للسنن الكونية، بل هو عنده خرق للعادة فقط! فإن كل إنسان _بحسب قوله_ لديه روح قوية يستطيع مخاطبة الأرواح التي تفارق أجسادها، وهو في ذلك _أيضًا_ متابع للغربيين لأنه يذكر أن لهم في هذا العصر عناية باستحضار الأرواح، وأنه يُروَى عنهم في استحضار الأرواح، ومكالمة الموتى أضعاف ما روي عن الصوفية من الوقائع[1]، وكذلك يذكر التنويم المغناطيسي، وقراءة الأفكار، ومراسلة الأفكار أو ما يسمى بالتخاطر ويؤكد أنه شاهد ذلك بالطرق الصناعية[2]. وبذلك فإن استحضار الأرواح ومكالمة الموتى والتخاطر وغيرها صار صنعةً بعد أن كان من الغوامض والعجائب التي كانت من خواص الصوفية كما يذكر رشيد رضا، ولكن مع تطور العلوم صار كل ذلك متاحًا للكثيرين ويقارب أن يكون صنعة كأيّة صنعة، ونتيجة لذلك فليس للإنسان أن يندهش من أية كرامة مهما كانت عجيبة فإن لها قانونًا وسببًا وإن خفي علينا الآن فإن العلم كفيل مع الزمن أن يظهر لنا تلك الأسباب الخافية علينا.

ما يظهر أنه تراجع من رشيد رضا عن موقفه من الكرامات

يبدو أن رشيد رضا قد تراجع شيئًا ما في أواخر حياته وخفف من موقفه تجاه الكرامات والخوارق فبينما أنكر خرق الكرامات للنظم الطبيعية في البداية وخاصة في حياة الأستاذ الإمام، حيث أخرج المجلدات الأولى من مجلة المنار التي حمل فيها على فكرة الكرامات لاسيما التي يزعم دعاتها أنها تخرق قوانين الطبيعة، لكن بعد وفاة

(1) المرجع نفسه، ص 190

(2) المرجع نفسه، المجلد الثاني والثلاثون،ص 38

الإمام هدأت تلك الحملة وتراجع رشيد رضا خطوة للوراء، فمن المعروف أنه صار أكثر سلفية وأبعد عن نهج الأستاذ الإمام، ونلاحظ هذا التغيير في المجلد الثاني والثلاثين للمنار والذي نشر عام 1931م وذلك في مقال تحت عنوان (إلحاد في القرآن ودين جديد بين الباطنية والإسلام) والذي ردّ فيه على **محمد أبوزيد الدمنهوري**[1] صاحب تفسير (الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن) الذي نشره عام1930م والذي ذكر في تفسيره أن السنن الكونية لا تبديل فيها ولا تغيير ولذلك أوّل المعجزات تأويلات غاية في الشذوذ[2] ورغم أنه كان من تلاميذ رشيد رضا وأتباعه إلا أنّ رشيد رضا هاجمه وردَّ عليه؛ مؤكدًا أن الله هو خالق الخلق والسنن وأنه لا يزال يُحدِث في العالم وفي كل الأزمان خرقًا لهذه السنن وهو ما يسميه العلماء فلتات الطبيعة، ومن العجيب أن هذا المفسّر قد اعتمد في إنكاره للخوارق على تلك القواعد التي بناها (رشيد رضا) من قبل في (مجلة المنار) وفي (تفسير المنار) وهذا ما أشار إليه (رشيد رضا) نفسه[3]، ورغم أن رشيد رضا قرّر أن جميع المعجزات والكرامات لا تخالف السنن الكونية، وأنها تجري وفق سنن لا يدركها القوم في عصرها، ولكنها تنكشف بعد ذلك مع تقدم العقل البشري والعلم، رغم أن ذلك كان رأيه إلا إنه وفي أثناء رده على محمد أبوزيد قال إن هذه المقولة هي مقولة الماديين

(1) كان من تلاميذ رشيد رضا في مدرسة الدعوة والإرشاد التي أسسها رشيد رضا، وصار من أتباعه ومريديه وقد أحبه رشيد رضا ودافع عنه بعد أن حُكم عليه – ابتدائيًا- بالكفر والتفريق بينه وبين زوجته عندما قرر أن نبوة آدم عليه السلام غير قطعية، ولكن بعد نشره تفسيره (الهداية والعرفان) سنة1930م وقف منه المجتمع الديني موقف العداء وكان منهم رشيد رضا الذي هاجم تلميذه في مجلته المنار، ونتيجة لهذا الهجوم على محمد أبوزيد اختفى ذكره حتى لا يُعلم تاريخ وفاته.

(2) انظر محمد أبوزيد: الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1349هـ 1930م، انظر تأويله لموت العزير مائة عام بأنه نام ليلة ظن أنها مائة عام ص35، وتأويله لكلام المسيح في المهد بأنه كلام في مرحلة الصبا أو التمهيد ص44، وأول كل معجزات الشفاء للمسيح بأنها شفاء روحي ص45، وزعم أن إبراهيم عليه السلام لم يُلقَ في النار ص256

(3) محمد رشيد رضا: مجلة المنار، المجلد الحادي والثلاثون، ص 683 وما بعدها

والباطنية والملاحدة! [1]، وراح يؤكد أنه ليس هناك شيء مطّرد في السنن الكونية؛ بمعنى أنه لا يوجد شيء ثابت لا يمكن مخالفته أو خرقه إلا القليل من الضروريات مثل قولهم (النقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان) [2]، وهنا نلاحظ تراجع واضح عن الموقف السابق وتبني موقف جديد يظهر فيه اعتماد رشيد رضا على اللاحتمية، حيث يرى رشيد رضا أن كل شيء ممكن في هذا العالم بمعنى أنه لا حتمية، ولا ثبات إلا للمقولة المنطقية عن نفي اجتماع وارتفاع النقيضين، فكل قانون جائز خرقه؛ وهذا يتوافق مع المعنى الموضوعي لمفهوم اللاحتمية القائل بنفي الحتمية في الظواهر الطبيعية والإنسانية نفيًا مطلقًا[3].

ويتأكد لنا اطّلاع رشيد رضا على هذا التغيير الجديد في العلم ونظرياته الجديدة التي تجاوزت ميكانيكية نيوتن الصارمة حينما نراه وهو يؤكد أن النظريات العلمية لا تلبث أن تتغير وتتراجع أمام نظريات جديدة؛ مثل ما حدث مع نظرية نيوتن عن الجاذبية حيث تراجعت أمام النسبية العامة لأينشتاين وكذلك تراجعت نظرية التطور تبعًا لتراجع النظرية الميكانيكية التي قامت عليها[4]، فهذا يؤكد اطلاعه على ما حدث من تطور في النظريات العلمية وخاصة ما شاع من انتهاء ميكانيكية نيوتن والتي تتركز وتتأسس على الحتمية والعلية، وقد ذكر بالنص أن هذا "**بدء عصر جديد في الكيمياء والطبيعة تقوّضت فيه سنن ونواميس كانت من المسلمات وثبُت خلافها**"[5].

ثم يشرح رشيد رضا لقراء المنار الاكتشافات العلمية الجديدة والتي بُنِيت عليها فيزياء الكم وأزاحت الحتمية الميكانيكية ومهدت لفكرة اللاحتمية، فيذكر تطوّر النظر

(1) المرجع نفسه، ص764

(2) محمد رشيد رضا: مجلة المنار، المجلد الثاني والثلاثون، ص 36

(3) جميل صليبا: المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ج2، ص 260_261

(4) محمد رشيد رضا: مجلة المنار، المجلد الثاني والثلاثون، ص 36

(5) المرجع نفسه، ص 37

إلى المادة وأنها لم تعد ضمن مقولات العلم، وأن هذا الوجود ما هو إلا مظهر من مظاهر تموّجات الكهرباء وأن كل ذرة تتكون من كهارب سالبة وموجبة وهو يقصد بذلك الإلكترونات والبروتونات، وكما يقول إن هذه الكهارب لا يمكن أن يقال إنها مادة أو قوة وإنما هي شيء مجهول[1].

يستخلص رشيد رضا_ بعد هذا العرض لما حدث من تطور في العلوم وانهيار النظرة الميكانيكية _ أنّ الله فاعل مختار وهو خالق الأسباب وغير مقيد بالأسباب أو السنن التي وضعها فهو إن شاء غيرها، وهذا في رأيه هو ما أوحى الله به وأنزله في كتبه، ويقابله ويناقضه قول الملحدين والمعطلين والكافرين _حسب قوله_ الذين ينفون عن الله المشيئة، والاختيار، ويقولون بتأثير الطبائع، وضرورة اتصال العلل بمعلولاتها/ الحتمية، ويقولون بأن هذا الكون يجرى وفق سنن ونواميس بمقتضى الضرورة ولا تأثير فيها لموجود غيرها[2].

واضح من كل ما سبق تراجع رشيد رضا عن إنكاره لإمكانية خرق السنن الكونية ومن ثم إمكانية الكرامات وجعل من يقول بذلك من الملاحدة والكفار، وحتى إنه تراجع عن قوله إن بعض ما يبدو مخالفًا للسنن الكونية له أسباب خفية لا نعلمها، وجعل من يقول بذلك من الكفار[3].

إذن فإن الله عنده هو الفاعل لكل ما في الوجود سواء من سنن كونية أو ما يخالفها من خوارق وكرامات، ولا حجر على قدرة الله وفاعليته الدائمة، وهذا يتوافق في رأيه مع آخر ما وصل إليه العلم، وهو بعد ذلك يردّ على من ينكر خرق السنن الكونية وكأنه يرد على نفسه؛ فقد ردّ على من يستشهد بقوله تعالى { فهل ينظرون إلا أن تأتيهم سنّة الأولين، فلن تجد لسنة الله تبديلًا ولن تجد لسنة الله تحويلًا} (فاطر 43)

(1) المرجع نفسه، ص 37
(2) المرجع نفسه، ص 39
(3) المرجع نفسه، ص 39

فيذكر أن المقصود بسنّة الله التي لا تتبدل ولا تتغير هي نصر الله لرسله على المعاندين[1]، ثم أوضح أنه هو أول من عمّم هذه السنن وجعلها تشمل السنن الكونية، بعد أن كان ابن خلدون (ت808هـ) يقصرها على السنن الاجتماعية[2]، وإذا رجعنا إلى ابن خلدون نجده يقول بأن الأولياء من الذين يتصرفون في الكون والطبيعة، ويأتيهم ذلك عرضًا وكرامةً لهم دونما طلب منهم، في حين يقوم أهل السحر والطلسمات بطلب التصرف في الكون والطبيعة وتصير لهم صنعة[3].

إذن يمكن أن نقول إن رشيد رضا هو من عمَّم القول بالسنن التي لا تتبدل _ والوارد ذكرها في القرآن_ على الكون والطبيعة وهو يقرّ بذلك، ولكنه بعد أن اقتنع بها الكثيرون وعلى أساسها تعرضوا للمعجزات بالنفي والتأويل، راح رشيد رضا ليقول إنه هو من ابتدع هذه الفكرة بمعنى أنها فكرة مستحدثة وليست مما يُفهم من القرآن بشكل صريح، وبعد ذلك يوضح رشيد رضا أنه ليس هناك أي دليل عقلي أو ديني على استحالة التبديل والتحويل في هذه السنن الكونية، وأنه لا دليل على اطّرادها وعدم الشذوذ فيها، بالإضافة إلى أن الأدلة العلمية والعملية تُظهِر أنه لا يوجد في الطبيعة وسننها من الثبات بحيث يستحيل نقضه، **فإنه بعد هذه الكشوف الجديدة لم يبق شيء مستبعدًا**[4]**، ويقرر رشيد رضا وبكل صراحة أنه ليس في هذا الوجود ناموس من نواميس النظام يقوم الدليل القطعي على استحالة تغييره وتبدّله، بل كله جائز**[5].

(1) المرجع نفسه، ص 41

(2) المرجع نفسه، ص 42

(3) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق محمد عبدالله الدرويش، دار البلخي، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى،1425هـ، 2004م ج2،ص 284

(4) محمد رشيد رضا: مجلة المنار، المجلد الثاني والثلاثون، ص 42

(5) المرجع نفسه، ص 43

إن رشيد رضا تحول إلى التمسك بما عليه جمهور المسلمين؛ من أن الله سبحانه هو خالق الكون، وهو المتصرف فيه، وأنه سبحانه لا يتقيد بتلك النواميس أو السنن التي أقام عليها نظام الكون، وقد دلّ القرآن على ذلك؛ وإمعانًا في مخالفة رأيه السابق والتراجع عنه يذكر رشيد رضا أنه حتى تلك السنن التي ذكر الله أنه لا تبديل فيها وهي عقاب الكافرين والظالمين قد وقع فيها استثناء وهو ما جاء في قوله تعالى {لَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ}[1] (يونس 98) فإن يونس عليه السلام لما جاء موعد عذاب قومه بعدما كذبوه تركهم فلما أحس قومه بأن العذاب واقع بهم ورأوا بوادره آمنوا فلم يقع عليهم العذاب، فهذا استثناء من تلك السنن العامة، ويذكر أيضًا من تلك الاستثناءات عفو الله عن المذنبين في الدنيا والآخرة رغم أن كل مذنب مستحق للعقاب بحسب سنة الله في قوله تعالى {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا} (الشمس9،8) [2].

إذن فإنه يمكن القول إن رشيد رضا يتراجع عن قوله بثبات السنن الكونية وعن قوله بأنه لا يجوز خرق القوانين الطبيعية التي تمثل سنن الله في خلقه، وقد

(1) جاء في تفسير القرطبي أن قوم يونس كانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم يونس عليه السلام يدعوهم إلى الإسلام وترك ما هم عليه فأبوا فقيل له: أخبرهم أن العذاب مصبحهم إلى ثلاث، فقالوا: هو رجل لا يكذب فارقبوه فإن أقام معكم فلا عليكم، وإن ارتحل عنكم فهو نزول العذاب لا شك، فلما خرج عنهم ولم يجدوه تابوا ودعوا الله وردوا المظالم والعذاب منهم فيما روي عن ابن عباس على ثلثي ميل، وأنهم غشيتهم ظلة وفيها حمرة فلم تزل تدنو حتى وجدوا حرها بين أكتافهم، فلما صحت توبتهم رفع الله عنهم العذاب، وقال الزجاج: إنهم لم يقع بهم العذاب، وإنما رأوا العلامة التي تدل على العذاب، ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان؛ ويكون معنى كشفنا عنهم عذاب الخزي أي العذاب الذي وعدهم به يونس أنه ينزل بهم، لا أنهم رأوه عيانا ولا مخايلة (انظر القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤م، ج8، ص383وما بعدها)

(2) محمد رشيد رضا: مجلة المنار، المجلد الثاني والثلاثون، ص 43 ومابعدها

اعتمد في الاستدلال على ذلك بما قررته العلوم بعد تطورها من الحتمية إلى اللاحتمية بعد تراجع الفيزياء الكلاسيكية وظهور فيزياء الكم.

ومما يدل على تراجعه عن موقفه المتشدد من الكرامات، أنه وفي آخر عمره يذكر مجموعة من الكرامات كانت قد حدثت له منذ سنين، فيذكر من ذلك أنه في سنة 1908م كان في طرابلس بلبنان وتنبأ بنزول الثلج ولم يكن نزوله في ذلك الوقت من العادة، ومنها أنه تنبأ بمستقبل أحد الأولاد بالتفصيل فحدث ما تنبأ به[1]، ومن ذلك أيضًا أنه كان يشفي المصروعين والمرضى بالصداع وغيره برقى يعرفها، وكان يكتب الأحجبة لمن يطلبها منه، ولكن لم يكن يفعل ذلك في مصر خوفًا من الفتنة[2].

من العجيب إذن أن الخصائص المميزة لعصرنا والملفتة للانتباه هي ذلك اللقاء بين الفيزياء الذرية من جهة والتراثات الروحانية الشرقية من جهة أخرى ومن هذه الروحانيات التصوف الإسلامي[3]، وأكثر من ذلك فإنه نتيجة لما ظهر أمام العلماء من لاحتمية العالم الظاهر ولا واقعيته جعلهم مجبرين على القيام بقفزة إبستمولوجية تجعل الله هو الواقع الحقيقي الوحيد[4]، وأخيرًا فقد تبيّن أن المصادفة والضرورة والحتمية عاجزة عن إنشاء وإدارة شئون الكون والحياة فلابد من عامل مرجّح ذكي خارج المنظومة يدفع الأقل احتماليّة للحدوث على حساب الأعلى احتماليّة، ولا يمكن أن يكون هذا المرجّح المتصف بالذكاء والقدرة والإبداع إلا الإله الخالق[5]، وهذا يجعل حدوث الكرامات الخارقة لما يُسمَى قوانين الطبيعة أمرًا جائزًا لمن يريد الله أن يؤيده بها.

(1) نفسه، المجلد الثالث والثلاثون، ص 367وما بعدها

(2) المرجع نفسه، ص 371 ومابعدها

(3) إيرك يونس جوفروا: المستقبل للإسلام الروحاني، ترجمة هاشم صالح، المركز القومي للترجمة، نبض للنشر والترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى 2016م، ، ص 108

(4) المرجع نفسه، ص 182

(5) عمرو شريف، المعلوماتية، مرجع سابق، ص 93، 484

الخاتمة

في نهاية هذه الدراسة نكون قد توصّلنا إلى عدة نتائج منها:

1 – ظهر أن مقولة الحتمية لها جذورها في الفلسفة اليونانية والإسلامية؛ حيث مثّلت مقولات مثل السببية والعلية والطبائع سلفًا واضحًا لهذه الحتمية الحديثة.

2 – كان الفلاسفة المسلمون ومعهم المعتزلة حتميّين، بينما كان أهل السنة وخاصة الأشاعرة من الرافضين للحتمية.

3 – ظهرت الحتمية في القرن السابع عشر خاصة بالاعتماد على جهود إسحاق نيوتن في الفيزياء، وساهم في الدعوة إليها فلاسفة كبار مثل سبينوزا وكانط، ثم بلغت الحتمية أوجها في القرن التاسع عشر، حيث سيطرت على العلوم الاجتماعية والإنسانية.

4 – اتضح أن التمسك بالحتمية في العلم الغربي الحديث كان نتيجة أهداف سياسية واجتماعية ودينية ساهمت في التعصب للحتمية واعتمادها كمبدأ مطلق لمواجهة السلطة الدينية ومبادئها المطلقة.

5 – انتقلت فكرة الحتميّة إلى الفكر العربي والإسلامي الحديث واعتنقها الحداثيون، ثم تمسك بها كثير من المفكرين المسلمين لمواجهة الخرافة التي سيطرت على الشعوب الإسلامية.

6 – هاجم رشيد رضا الاعتقادات التي كانت شائعة عن الكرامات ورأى فيها خطورة على الدين وعلى عقول المسلمين ومعوقًا في سبيل تقدمهم.

7 – اعتمد رشيد رضا على فكرة الحتمية في نظرته الأولية تجاه كرامات الأولياء؛ حيث رفض القول بإمكانية خرق تلك الكرامات لقوانين الطبيعة الحتمية.

8 – بدأ الشك في كفاءة مبدأ الحتمية بعد اكتشاف قوانين الديناميكا الحرارية قريبًا من منتصف القرن التاسع عشر، ثم توالى خروج السوائل والغازات عن قبضة الحتمية واستعمالها لمبادئ الاحتمال والإحصاء، ومع بدايات القرن العشرين ساهمت النسبية في تقويض التصور الميكانيكي للكون، والذي كان يمثل الأساس الذي

استقوت به الحتمية، وكانت النهاية المؤكدة للحتمية بعد ظهور فيزياء الكوانتم التي نفت تحّكم الحتمية في العالم المايكروفيزيائي.

9 – تم اعتماد فكرة اللاحتمية بشكل رسمي في عام 1927م وحلت محل الحتمية ومازالت اللاحتمية هي المبدأ العلمي السائد في العلوم وانتشر تأثيرها في كل المجالات.

10 – تبيّن أنّ اللاحتمية لا تعني انعدام النظام أو الفوضى أو اللامعقولية، وإنما تعني وجود نظام لا تحكمه الحتمية، مما يعنى أن اللاحتمية لا تساهم في نصرة الإلحاد.

11– تأكّد بوضوح تنبّه ومعرفة محمد رشيد رضا لتطور العلم من الحتمية إلى اللاحتمية وقد اعتمد مقولاتها في تأييد أفكاره الجديدة.

12 – تراجع محمد رشيد رضا في آخر عمره عن موقفه من كرامات الأولياء، وخاصة ما كان يدعيّه من أنها لا تخرق القوانين الطبيعيّة الحتمية، فقال بإمكانية ذلك نتيجة تطور النظريات العلمية التي تحولت من الحتمية إلى اللاحتمية.

مراجع البحث

1) ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم: مجموع الفتاوى، تحقيق عبدالرحمن محمد قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، 1425هـ ، 2004م ،ج11.
2) ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن محمود الكناني العسقلاني المصري: فتح الباري شرح صحيح البخاري، المكتبة السلفية، القاهرة، الطبعة الأولى
3) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد: الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد على صبيح، وبهامشه الملل والنحل للشهرستاني، مكتبة السلام العالمية،1964م
4) ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الذهلي الشيباني: فضائل الصحابة، تحقيق وصيّ الله محمد، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 1403هـ، 1983م
5) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسين: لباب المحصل في أصول الدين، تحقيق د.عباس محمد حسن، دار المعرفة الجامعية ،1996م
6) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسين، مقدمة ابن خلدون، تحقيق محمد عبدالله الدرويش، دار البلخي، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى،1425هـ، 2004م
7) ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر: التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، الدار التونسية للنشر – تونس، 1984
8) ابن عبد الحكم، أبو القاسم المصري عبد الرحمن بن عبد الله ،: فتوح مصر والمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1415هـ
9) ابن عربي، محيي الدين محمد بن علي بن محمد الحاتمي: الفتوحات المكية ، ضبطه وصححه أحمد شمس الدين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1420هـ،1999م، الجزء الثالث.
10) أبوزيد، محمد: الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1349هـ.
11) أحمد، محمد هاني خليل السيد: مبدأ اللاحتمية عند كارل بوبر، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، 1995م
12) أدنجتون، آرثر ستانلي: فلسفة العلم الفيزيائي، ترجمة أحمد سمير سعد، دار آفاق للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2019م

13) الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل: الإبانة عن أصول الديانة،، ابن زيدون للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت لبنان، بدون تاريخ
14) أنطون، فرح: فلسفة ابن رشد، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، بدون تاريخ
15) الإيجي، عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد: المواقف في علم الكلام، عالم الكتب – بيروت
16) البازي، بلال: مفهوما السببية والحتمية بين ابن رشد واسبينوزا، مجلة تبين للدراسات الفكرية والثقافية،2020، مجلد8، عدد32
17) البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخراساني: دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، توثيق وتخريج وتعليق د/عبدالمعطي قلعجي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان – دار الريان للتراث، الطبعة الأولى، 1408-1988،ج6.
18) حسين، جمال نصار: الشريعة والمعجزة رؤية معاصرة، بحث في مجلة التربية قطر، سبتمبر2004، رقم العدد150.
19) حسين، جمال نصار، لؤي فتحي، الباراسيكولوجيا بين المطرقة والسندان، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1995م
20) خصاونة، سهام محمود، أساسيات العلوم العامة، دار المنهاج للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 1435هـ، 2014م
21) خليفة، داود: نظرية الفوضى وهدم التصور الحتمي، مجلة الخلدونية للعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة ابن خلدون، تيارت، الجزائر، 2013، المجلد 6، عدد1
22) الخولي، يُمنى طريف: الطبيعيات في علم الكلام، من الماضي إلى المستقبل، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1995م
23) ----------: فلسفة العلم في القرن العشرين، ضمن سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد ديسمبر2000م
24) ----------: فلسفة العلم من الحتمية إلى اللاحتمية، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2001
25) ----------: مشكلة العلوم الإنسانية، تقنيتها وإمكانية حلها، دار الثقافة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1996م
26) دوسن، سليمة، وعبد العزيز بن يوسف: طبيعة العالم الفيزيائي في العلم المعاصر، مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية، الجزائر، 2023م، عدد1

27) ديورانت، ول: قصة الحضارة، عصر الإيمان، ترجمة محمد بدران، دار الجيل، بيروت، لبنان، الجزء الثاني من المجلد الرابع (13)
28) رزيق، رابح: أزمة الفيزياء المعاصرة، من النظام إلى الفوضى، مجلة آفاق علمية جامعة وهران2، الجزائر، 2023، مجلد16، عدد1
29) رضا، خمري، نقد مبدأ السببية عند هايزنبيرج، مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية، تصدر عن مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2021، مجلد9، عدد2
30) رضا، محمد رشيد: الوحي المحمدي، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة،1406هـ
31) رضا، محمد رشيد: تفسير المنار، دار المنار، القاهرة، الطبعة الثانية1366هـ،1947م، الجزء الأول
32) رضا، محمد رشيد: مجلة المنار، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1327هـ
33) زروق، إبراهيم: إشكالية المعرفة بين الحتمية واللاحتمية، بيير لابلاس أنموذجًا، مجلة جامعة تشرين الآداب والعلوم الإنسانية، المجلد 45، العدد(1)، 2023م
34) زكريا، فؤاد: خطاب إلى العقل العربي، مؤسسة هنداوي، 2018م
35) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، دار إحياء التراث العربي بيروت، تحقيق عبد الرازق المهدي، ج4 .
36) السبكي، أبو نصر تاج الدين عبد الوهّاب بن علي بن عبد الكافي: طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو، ومحمود محمد الطناحي، الجزء الثاني، دار إحياء الكتب العربية.
37) سميث، جوناثان سي.: العلم الزائف وادعاء الخوارق أدوات المفكر النقدي ترجمة محمود خيال، المركز القومي للترجمة، العدد 2563 ، الطبعة الأولى، 2016م
38) شريف، عمرو شريف، المعلوماتية البرهان الأكبر على الربوبية، نيو بوك للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2018م
39) صليبا، جميل: المعجم الفلسفي، الجزء الأول، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982م
40) الطائي، محمد باسل: دقيق الكلام الرؤية الإسلامية لفلسفة الطبيعة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن،2010
41) طرابيشي، جورج: المعجزة أو سبات العقل في الإسلام، دار الساقي بالاشتراك مع رابطة العقلانيين العرب، الطبعة الأولى، 2008م.

42) طنطاوي، محمد سيد: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر، الفجالة، القاهرة، 1998،ج11

43) الطهطاوي، رفاعة رافع: نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز، دار الذخائر القاهرة، ط1، 1419هـ.

44) عبد العزيز، محمد سلامة: موقف التيار الإصلاحي الديني من تصور الطبيعة في الفكر التنويري بحث منشور في مجلة الدراسات العربية، العدد الثامن والعشرين، المجلد السادس، يونيو 2013م

45) عيسو، رابح: بحث بعنوان (الحتمية بين الفيزياء النيوتونية والفيزياء الكوانتية) مجلة دراسات إنسانية واجتماعية، جامعة وهران، المجلد 9، العدد الثالث، 2020/6/16

46) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي: الاقتصاد في الاعتقاد،دار الكتب العلمية،بيروت ، لبنان،1424هـ،2004م،ص 107

47) القاضي عبد الجبار، أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد: المغني في أبواب التوحيد والعدل، تحقيق محمود محمد قاسم، مراجعة إبراهيم مدكور، إشراف طه حسين، الدار المصرية للنشر والترجمة، القاهرة، 1958م، ج15 التنبؤات والمعجزات،

48) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤ هـ – ١٩٦٤م

49) القشيري، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة : الرسالة القشيرية، دار المعارف، القاهرة، تحقيق الإمام عبدالحليم محمود، ومحمود بن الشريف،ج2، ص523

50) الكلاباذي، أبوبكر محمد بن إسحاق: التعرُّف لمذهب أهل التصوف، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى 1413هـ،1993م.

51) كَلشني، مهدي: القرآن ومعرفة الطبيعة، ترجمة محمد على التسخيري، معاونية العلاقات الدولية في منظمة العالم الإسلامي، طهران، إيران، الطبعة الثانية، 1414هـ، 1993م

52) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار الجامعة لدرر الأئمة الأطهار،الطبعة الثانية المصححة 1403 هـ. 1983 م مؤسسة الوفاء – بيروت – لبنان – الجزء89.

53) محمد عبده: الأعمال الكاملة، الجزء الثاني، في الكتابات الاجتماعية، تحقيق محمد عمارة، دار الشروق، ط1414،1هـ،1993م.

54) محمد عبده: رسالة التوحيد، تحقيق محمد عمارة، دار الشروق، الطبعة الأولى،1414هـ،1994م.
55) المرزوقي، أبو يعرب: مفهوم السببية عند الغزالي، دار بو سلامة للطباعة والنشر، تونس، الطبعة الأولى، د ت.
56) النبهاني، يوسف بن إسماعيل: جامع كرامات الأولياء، تحقيق إبراهيم عطوة عوض، الناشر: مركز أهلسنة بركات رضا فوربندر غجرات (الهند)، الطبعة الأولى 2001م
57) نفادي، السيد: السببية في العلم وعلاقة المبدأ السببي بالمنطق الشرطي، دار التنوير للطابعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2006م
58) نفادي، السيد: الضرورة الاحتمال، بين الفلسفة والعلم، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع2009م
59) هنترميد: الفلسفة أنواعها ومشكلاتها، ترجمة فؤاد زكريا، مؤسسة هنداوي، 2022م
60) هيكل، محمد حسين: الإيمان والمعرفة والفلسفة، دار المعارف، القاهرة،1978م
61) وجدي، محمد فريد: الإسلام في عصر العلم، دار الكتاب اللبناني، بيروت لبنان، الطبعة الثالثة.
62) وجدي، محمد فريد، دائرة معارف الرابع عشر، القرن العشرين، طبع بمطبعة دائرة معارف القرن العشرين، الطبعة الثانية 1343هـ 1924م
63) وولف، فريد آلان: مع القفزة الكمومية، ترجمة أدهم السمان، دمشق، دار طلاس، 1994م
64) يفوت، سالم: إبستيمولوجيا العلم الحديث، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثانية،2008م

مراجع أجنبية

(1) Sidney Hook: Determinism and Freedom In the Age of Modern Science, Collier Book, New York, First Eddition, 1961

(2) Pierre-Simon, Marquis de Laplace: a philosophical essay on probabilities, Translated from the sixth French edition by: Frederick Wilson Truscott, Ph.D. (Harv.), and others, John Wiley & Sons, London: Chapman & Hall, Limited. 1902,